مهرجان القراءة للجميع

مكتبة الأسرة 1997 ١٩٩٧

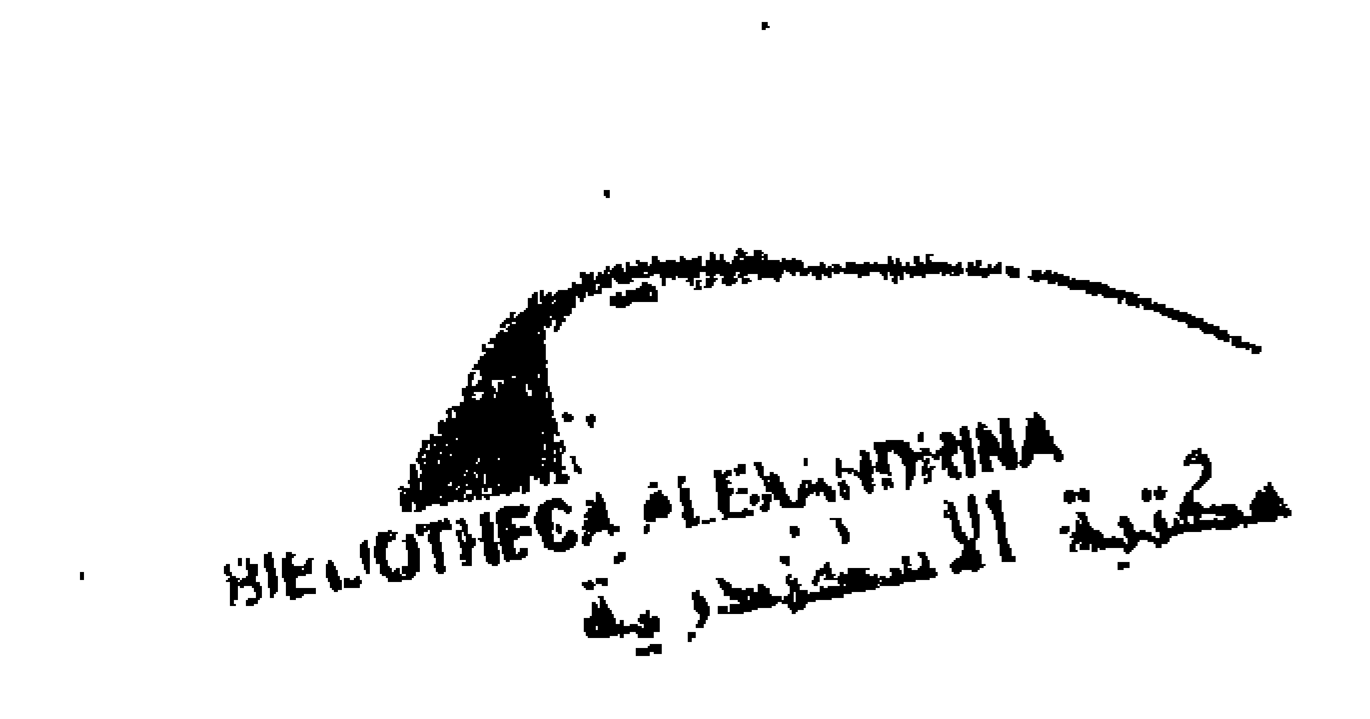
من هدى القرآن

الأعمال الدينية

أمين الخولي

الهيئة المصرية العامة للكتاب

اهداءات ٢٠٠٣
الفنان / إلهامي حسن
القاهرة



من هدى القرآن

من هدى القرآن

أمين الخولى

الطبعة الرابعة



مهرجان القراءة للجميع ٩٧

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(الأعمال الفكرية)

من هدى القرآن

أمين الخولي

الغلاف
الإشراف الفنى:
للفنان محمود الهندى

المشرف العام
د. سمير سرحان

الجهات المشتركة:
جمعية الرعاية المتكاملة المركزية
وزارة الثقافة
وزارة الإعلام
وزارة التعليم
وزارة الإدارة المحلية
المجلس الأعلى للشباب والرياضة
التنفيذ: الهيئة المصرية العامة للكتاب



مقدمة

وهكذا تمضى مسيرة مكتبة الأسرة لتقدم فى عامها الرابع تسع سلاسل جديدة تضم روائع الفكر والإبداع من عيون كتب الآداب والفنون والفكر فى مختلف فروع المعرفة الإنسانية، تروى تعطش الجماهير للثقافة الجادة والرفيعة، وتنضم إلى مجموعة العناوين التى صدرت خلال الأعوام الثلاثة الماضية لتغطى مساحة عريضة من بحور المعرفة الإنسانية، ولتقطع بأن مصر غنية بتراثها الأدبى والفكرى والإبداعى والعلمى، وان مصر على مر التاريخ هى بلاد الحكمة والمعرفة والفن والحضارة .. عبقرية فى المكان وعبقرية الإبداع فى كل زمان.

سوزان مبارك

على سبيل التقديم...

مكتبة الأسرة ٩٧ رسالة إلى شباب مصر الواعد تقدم صفحات متألقة من متعة الإبداع ونور المعرفة مصدر القوة فى عالم اليوم..

صفحات تكشف عن ماضينا العريق وحاضرنا الواعد وتستشرف مستقبلنا المشرق.

د. سمير سرحان

نظراً للإقبال الجماهيرى على هذا الكتاب فى طبعته الثالثة، حيث نفذت الكمية المطبوعة منه خلال ساعات قليلة، رغم ضخامة الكمية المطبوعة. فقد رأت اللجنة العليا المنظمة لمشروع مكتبة الأسرة برئاسة السيدة سوزان مبارك - حرم السيد رئيس الجمهورية ورئيس اللجنة العليا - إعادة طرحه فى طبعة رابعة بناء على رغبة القراء الذين طالبوا بالمزيد من هذه الأعمال الخالدة.

مقدمة

حمداً لله . . وصلاة وسلاما على الرسول الأمى الذى حمل إلى الإنسانية هذا القرآن الكريم ، الذى نطلب هديه فى تدبير الحياة .

— ١ —

عرفت مصر الإذاعة بعد ما عرفتها أوربا بأعوام . . وعرفتها أول ما عرفت عن طريق محطات أهليه ، كان يديرها أفراد تجار ، لهم طاقة محدودة . . فى غير توجيه اجتماعى أو فنى .. فكانت تلك المحطات الأهلية المتعددة مصادر إعلان عن المتاجر .. والأشخاص .. وفى سبيل هذا الإعلان يرسل من تلك المحطات شىء من الموسيقى أو الغناء أو تلاوة القرآن .. أو الأخبار ، إطاراً للاعلانات

وفى ظلال هذه الصورة المزيلة للإذاعة ، أسست محطة الإذاعة الحكومية سنة ١٩٣٤ ، تديرها شركة ماركونى .. فبدأت غير مستبينة مهمتها الإجتماعية أو الثقافية .. فى بلد جمهرته أمية .

وفى هذا الجو طلب إلىَّ أوائل سنة ١٩٣٨ ، أن أذيع أحاديث عن أخلاق القرآن .. ولم يكن الشعور العام إلا أن الإذاعة تسلية جديدة ، يجدها أصحاب الوقت الفارغ ساعات طويلة من النهار والليل ، ولست من ذوى البراعة والقدرة فى التسلية .. ! !

وإذا ما كانت تلاوة القرآن المنغمة ، من أولئك المرددين له ، فى غير فهم ولا شعور تعد إطارا لتلك التسلية المحدثة ، فليس من تلك التسلية فى شىء

التحدث عن أهداف القرآن البعيدة ، ومراميه الإجتماعية .. ورياضته للنفس الإنسانية ! ! وهكذا سارعت فرفضت كما قلت — فى وقتها — أن أضع وجهى فى الحيط ، وأقول « توت » لآخذ نقودا !!

ومضت أشهر بلغت الستة ، وأنا مصر على هذا الترفع بالقرآن ، عن أن أتحدث عنه فى الإذاعة ، حديثا يذهب مع الريح ، أو يقع إلى أذان بلهاء عابثة ، لا تعى منه شيئا ، إن لم تتبادل النكت الساخرة بالمتحدث فى ذلك ، وبما يحدث به ! !

قلت هذا وأنا أعرف — فى الوقت نفسه — مما شهدت فى أوربا قبل أكثر من عشرة أعوام ، أن الإذاعة شىء أكثر جدا .. وأبعد أثرا ، وأفعل فى حياة الأفراد ، والحكومات والتيارات السياسية ..

وعاودوا الكلام — فى إصرار — عن إذاعة أحاديث عن القرآن .. فشرطت لذلك أن لا أقول إلا ما يجب أن يقوله رجل أمضى دهراً طويلا يدرّس القرآن فى كلية الآداب بالجامعة ، على أنه كتاب العربية الأكبر ، وتاج أدبها العالى ، ويلتمس المناهج المحررة للتفسير الأدبى .

وقبل القوم ما شرطت، فى غير أى قيد .. وكانوا ـ فى الحق ـ صادقين .. إذ مضيت أذيع هذه الأحاديث « من هدى القرآن » وليست بالخفيفة ولا القريبة .. وأشعر بذلك بين الحين والحين فأطلب إليهم أن يعفونى من متابعة التحدث ، وإرهاق الناس به .. فيلحوا فى أن أمضى فى أحاديثى ، ولو كان الذين يدركونها نفرا يعدون على أصابع اليد الواحدة . .

وزاد تمثلى لما تستطيعه الاذاعة ، من تأثير ثقافى .. ومشاركة فى حياة

الخاصة بما وضعت المحطات الغربية ، من البرامج الثانية، والثالثة ،وتوجيهها لذوى الحياة العالمية ـ كما يقولون ـ فاطمأننت إلى أن تكون تلك الأحاديث..

« من هدى القرآن » قبسات من نتائج الدراسة الأدبية الفنية للقرآن معجزة العربية البلاغية .. والأصل الأكبر لدعوة الاسلام .. دراسة تحاول عرض الهدى القرآنى ، فى تفسير الحياة وتدبيرها ذلك التدبير الذى حفظ لنفسه صفة العموم والدوام ، وختم رسالات السماء إلى هذه الارض ..

ومضيت إلى أبعد من هذا الأمل فى الإذاعة ، فطلبت إليهم ـ كلما جدت مناسبة ـ أن يفردوا برامج خاصة ، توجه إلى أصحاب الثقافة الواسعة كما هو الشأن فى الأمم الأخرى .. وهو ما تحقق بعضه أخيرا .

— ٢ —

هذه الثقة الكبرى بعظمة التدبير القرآنى للحياة، وصلاحيته المتجددة لذلك؛ وهذا الأمل الفسيح ، فى إذاعة ثقافية ، لايتحكم فيها المستوى التعليمى للجمهرة ، كانا العاملين المؤثرين فى تحديد مستوى الأحاديث « من هدى القـــرآن » والاتجاه فى اختيارها فجعلت تمس موضوعات موحدة ، تستوفيها وتطول الاحاديث فيها حتى تقارب العشرين حديثا أحيانا فى الموضوع الواحد وكأنها البحث الجامعى المتميز لموضوع بعينه ، وتكونت منها على مرور عشرين عاما — منذ أذيع أول حديث منها إلى اليوم — مجموعات مختلفة من الأبحاث المحدودة المميزة : كالسلام .. والإســلام ، والقرآن .. والحياة ، والقادة .. الرسل ، والطغيان فى العلم والمال والحكم ،

وحكومة القرآن ، والحكم بما أنزل الله ، والفن البيانى فى القرآن ، والقسم القرآنى ، وشخصية محمد ، وعبادات كالصوم والحج ، وغير ذلك من موضوعات ذات وحدة وإتساق .

وسلكت الأحاديث فى تلك الموضوعات كلها منهجا كان صدى قويا لما انتهى إليه الدرس الجامعى خلال عشرة أعوام قبل بدء هذه الأحاديث ، وطوال العشرين عاما التى شغلتها هذه الأحاديث .. إذ قدتم فى خلال ذلك الزمن غير القصير تقرير منهج التفسير الأدبى للقرآن الذى يتميز عن مناهج التفسير المختلفة المتعددة ، بالأثر أو بالرأى المتأثر بالثقافات المختلفة.. وهذا التفسير الأدبى عندى هوالذى يجب أن يتقدم كل محاولة لمعرفة شىء من فقه القرآن ، أوأخلاق القرآن ، أو عبادات الإسلام ومعاملاته فى القرآن .

ويتميز هذا المنهج للتفسير الأدبى بقسمات ومعارف خاصة ، إن أشرت إلى أكثرها فى هذه المقدمة فليس هنا موضع الحديث المفصل أو شبه المفصل فى شىء منها . لأنها أفسح من ذاك وأعمق .. فحسبى أن أسرد أهمها ليعرف القارىء قبل معاناة شىء من قراءة هذه الأحاديث خصائصها العقلية ، ومميزاتها الأدبية ..

قلت إن هذه الأحاديث كانت صدى للتفسير الأدبى ، ومن أجل ذلك حفظت منه الخصائص الآتية :

١ — أنها تقصد إلى التدبير النفسى والاجتماعى فى القرآن للحياة الإنسانية وترى أن هذا هو المجال الخاص للقرآن وهو السبيل المفردة لتحقيق أهداف الرسالة الإسلامية وتأثير ا على الحياة .. أما ما وراء ذلك

من علم طبيعى أو رياضى ، أو حقائق فلسفية أو كونية فلا تؤمن هذه الأحاديث بأن القرآن يقصد إلى شيء منها . وإنكار التفسير العلمى قضية من كبريات قضايا المنهج الأدبى فى التفسير لعل القارىء يجد جملة منها فيما كتبت من مادة تفسير ، فى ترجمة دائرةالمعارف الإسلامية ..

٢ – أنها تعمد إلى معانى الآيات القرآنية التى تؤديها ألفاظها العربية المبينة ، كما كان يفهمها أهل العربية فى عهد نزول القرآن ولا تجاوز ذلك فتحمل ألفاظ القرآن شيئاً من المعانى الباطنية أو الإشارية ، أو التأويلات المذهبية، أو الصناعات التى تنشط لها علوم العربية، من نحو منطقى بعيد عن الطبيعة اللغوية ، أو بلاغة فلسفية نظرية نائية عن الأجواء الفنية... إلى ما وراء ذلك من اتجاهات لعلها قد استهلكت جهود رجال كثيرين ، خلال أجيال طويلة ، وملأت صفحات مجلدات كثيرة ، لا نملك إلا أن نلتمس لأصحابها المغفرة لما أسدلوا من حجب على البيان القرآنى المعجز ، وما أقاموا من عقبات فى سبيل الوصول إلى أغراضه الحيوية ومعانيه الاجتماعية النفسية . . وإذا ما قصدت هذه الأحاديث «من هدى القرآن» إلىمعانى ألفاظه العربية فما تجاوزذلكأبداإلاإلى التماس ما للفظ والنظم من إيحاءات أدبية فنية لصوغ معجز بلاغته أحس ملوك الكلام من العرب ، ودان بها المتمنعون على الإسلام أنفسهم ، فوصفوه وهميحاربونه ، بأقوىما عرفوامنمصادرالتأثير الوجدانىعلى النفس الإنسانية فهو مرةشعر وإن لم تقطعه أوزان وتختمه قافية .. وهو مرة سحر يأخذ على

النفس أقطارها ، ويخيل إليها مايشاء من أمر .. فالتماس الإيحاءات الأدبية التي تنشر عبيرها بلاغة القرآن المعجزة إنما هو التتمة الطبيعية لفهم ألفاظه العربية ، ونظمه الرائع .. دون انحراف عن القصد الأمم في فهمه إلى شيء مما أشرنا إلى الجدفيه والعناية به قديما، لأسباب وأهداف ليس هنا المجال لبيانها.

٣ — أن هـذه الاحاديث تتجه كما هو باد مما ذكر من موضوعاتها المحددة ، إلى تفسير القرآن موضوعات ، لاسورا ، وأجزاء ، وقطعا متصلة ، على ضرب من الترتيب .. بل هي تتبع مايخص موضوعها من آيات في مختلف السور والأجزاء القرآنية . لأن هذا القرآن يفسر بعضه بعضا ولأن الترتيب القرآني — كما هو معروف — يعين على ذلك ويؤيده . . وتلك أخرى من قضايا التفسير الادبي نشير إليها ، ولا نخوض فيها هنا ، إذ ليس ذاك مجالها

وهذه هي الخطوط الكبرى لصورة هذا التفسير الادبي ، التي انعكست على صفحة تلك الاحاديث .. فكانت له تطبيقا عمليا ، واستجابة أدبية منهجية ...

— ٣ —

ترددتْ في تلك الأحاديث ، بين الحين والحين لفتات إلى أسس هذا المنهج في تناول هدى القرآن ، وغايات هذا التناول ، ولعل القارىء سينتبه حتما إلى مثل العبارات التالية في الحديث الثاني عشر ، من هدى القرآن في القادة .. الرسل ، الذي بين يديه ، إذ يقرأ فيها :

« ونريد هنا لنقف عند هذه الوحدة للاستعمال القرآني ، وهي وقفة

أدبية نشرف فيها على آفاق طرائف الفن القولى ، الذى ذهب به هذا القرآن كتاب العربية الأكبر ، على أنها ليست وقفة يراد منها الفن للفن ، بل هو فنه المرتبط بالهدف الإجتماعى ، الذى يرمى إليه القرآن دائما ، والذى نبتغيه أول ما نبتغى من هذه الأحاديث . فإذا ما قال قائلون : إن الفن لا يلتزم الفضيلة موضوعا له ، وإن الفن يرجى للفن وحده ، فانا لا نأخذ هنا بهذا الاتجاه .. ولا نحسب القرآن قد أخذ به ، لأنه يجعل فنه القولى وسيلة لإصلاح الحياة البشرية ، ذلك الإصلاح الخلقى الاجتماعى العام ، الذى أنزل من أجله هدى للناس ورحمة ، يهدى للتى هى أقوم ، ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا كبيرا . ثم إننا نرمى من وراء ذلك كله إلى الإرتياض ، والدعوة للأخذ بالنظرة الشاملة والفكرة الجامعة ، فى تفسير هذا القرآن .. راجين أن يتمسك بها أصحاب القول فى تفسيره اليوم، فيتتبعوا استعماله ، فى المواطن المتباعدة ، والمناسبات المتغايرة ليستشفوا من وراء ذلك نظراته البعيدة : فى نظمه ، وصوغه ، ولا يكتفوا بالنظرة الجزئية ، إلى الكلمة فى الآية ، أو الآية فى السورة ، لأن ذلك لا يلائم أهمية هذا الكتاب ، ولا يهدى إلى دقائق مراميه الإصلاحية الكبرى » .

وفى ثنايا الأحاديث لفتات وتوجيهات إلى معالم هذا المنهج الذى جرت تلك الأحاديث على سنته ، والتى يستطيع القارىء على أساسها أن يعرف دستور التفكير فيها والطابع الفكرى لها ، فيتمثل بوضوح مراميها ، ويتفق معها أو يختلف وإياها عن بينة وعلى بصيرة . .

طُلب إلىَّ مراراً كثيرة أن أقدم هذه الأحاديث للطبع ، وكنت أتعلل لإهمالى فى ذلك بأنواع من التعلات ، توحيها الظروف ، حتى تغلب على إهمالى جد الأبناء البررة أصحاب « دار المعرفة » ولم يترك لى تصميمهم تعلة ولا مهربا . ومما كنت أتعلل به غير مرة أنه يجب أن أعاود النظر فى هذه الأحاديث لأبعدها نوعا ما عن جو التحدث الإذاعى ، وأدنيها إلى حدما من جو الكتابة التأليفية . . وذلك يتطلب وقتا لا يتهيأ . . وجهدا لا تتركه أعمال أخرى عاجلة ، لكن أصحاب «دار المعرفة» قدحاجونى فى ذلك بما أخذ على أقطار المعذرة ، وقطع سبلها ، فقال أحدهم ، السيد الدكتور محمود الشنيطى : إن هذه الأحاديث قد كتبت فى أجواء عامة من الحياة حولك ، وأجواء خاصة من تأثرك النفسى بها ، وترك ذلك كله آثاره الواضحة فى هذه الأحاديث تعبيرا وتفكيرا ، فهل تراك اليوم تستعيد هذه الأجواء كلها حين تعاود النظر فى هذه الأحاديث ! أو تراك تنظر إليها وأنت غير مستطيع استعادة أجوائها تلك ، فلا تنصف وحدتها ! اتركها ، قطعة من التاريخ الاجتماعى ، وصـــــورة من مراحل التطور الفكرى والعملى لك وللحياة المصرية ، فتكون لها فوق قيمتها الموضوعية قيمة تاريخية . .

وغلب شباب الأبناء الناشطين شيخوختى ، وما بها من فتور ، فلم أخالف . . ولم أتأخر . . وجعلنى هذا وذاك أشعر مطمئنا أن هذه الأحاديث كتبت منذ سبعة عشر عاما أو ستة عشر عاما ، بين سنتى ١٩٤١ و ١٩٤٢ ،

وإنه لمدى طويل ، وعهد تباعد ، فما أنصف إذا أعدت النظر بعده فيما كتب منذ هذا الوقت غير القصير ، فى حياة الأفراد والجماعات ..

وهكذا أسلمت الأحاديث (من هدى القرآن) عن القادة .. الرسل ، للقارىء كما كتبت للسامع ، فى جوها ، إذ الحرب العالمية مستعرة ، وأحداثها تعكس أثرها الرهيب على الحديث عن القادة ، وأصحاب الرسالات ..

ولقد آثرت أن أبدأ بتقديم (القادة..الرسل) وإن لم يكن أول ما عولج من الموضوعات التى أشرت إليها لأن الشرق يحسن اليوم أن يصيخ إلى ماهتفت به منذ هذه البضعة عشر عاما ليتخير قادته .. ويخلق حملة رسالته .. وينقد المتصدرين إذ ذاك للقيادة فيه .. وإنه اليوم ليجدّ به الجد إلى ما يشابه جد الحياة عند استعار هذه الحرب ، ومستقبل الانسانيه فى مهب العواصف .. فما أشبه الليله بالبارحة ..

فلعل شباب الشرق يجد فى هذا الهدى القرآنى الخالد مبعثا على جد ودفعاً إلى هدف كريم .. فى صدق وإيمان .. هداه هدىُ القرآن م ؟

أمين الخولى

رسل ورسالات

(١)

[رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ، وَكَانَ اللهُ عَزِيزاً حَكِيماً] . لقد جاءكم من هدى القرآن ما يمس مشكلات كثارا من عقد الحياة العاملة ، ورأيتموه يتولى التنسيق الإجتماعى ماضيا إلى أغوار المصاعب ماسا أصولها البعيدة ، وفى القرآن من ذلك ـ كما سلف ـ كثير وكثير ... والآن يلتمس هدى القرآن فى تقدير قيم الأشخاص والأشياء والأعمال ، ووزن البواعث والغايات التى ينبعث الناس بها فى حياتهم ويصدرون عنها فى تصرفهم ، ويرمون إليها فى سلوكهم ، ويجعلونها هدفهم فى سعيهم ، فقد اضطربت فى ذلك الأهواء ولاذ الناس فى تقديرهم وتأثرهم بأحكام ومذاهب أبت إلا أن تقيس كل ما فى الوجود بالعروض والنقود ورأت ألا تقدر كل أجر ، إلا بالرطل والمتر ، ولم يرضها وراء ذلك جزاء ، ولا قبلت دونه ثمنا ، واطمأن مَنْ حولنا — وفيهم كثير من الخاصة — إلى متع من الحياة يشركهم فيها الحيوان الأعجم وقد يغلبهم عليها الإنسان الأول ساكن الغابة والجهل ، فأفاضوا بذلك على دنياهم ، ودنيا غيرهم ، قسوة وقتاما ، وزادوها برودا وظلاما . . إذ حالوا بين أنفسهم وبين متع من الروح والنعيم ، ومباهج من السنا والنور ، ولذائذ من الرضا والحبور ، وحينما أنكروا ذلك وحقروه ، لم يحرموا أنفسهم منه فحسب بل شوشروه

على من يبتغيه ، وشوهوه على من يؤثره ، ففسدوا وأفسدوا ، وتاذوا وآذوا وعُذبوا وعَذبوا معهم غيرهم ... والله المستعان .

عقولَ المفكرين : حنانيك لا تضجرى ، إذا ما عرضت للبواعث والغايات فذكرت فى مثل هذا الوقت ، الروح والحبور ، والنور والنعيم ، والعالم اليوم عالم القاذفات والالغام والنسافات والمدمرات ، والغواصات والطاردات ... صبرا لا تجزعى إن سرت اليوم إلى غير ذلك كله ، ففى الدنيا وراء كل أولئك ، ورغم كل أولئك ، بقية أمل ، وصُبابة رجاء ، وما زال الشر ينتهى إلى خير ، بل إن هذا الشرقد تؤججه وتلهبه وتذكيه وتُؤَرِّثُه منابع خيرة فى هذا الإنسان ، وإلا فما الذى هوّنَ على الشباب المتوثب موتا أحمر يتلهب ؟ ! وقد اعتادوا ألا ينقلوا قدما إلا لفائدة ولا يبسطوا له يداً إلا لمائدة ؟ ما الذى يسّر التضحية ، وأرخص الارواح ، واستباح الخزائن ، وأغلى الكرامة ، وقدس الشرف ؟ إنها معان فى الإنسانية هى ميزة الكرام وقوة الجديرين بالحياة ، فإن أتحدث عنها الآن ، فما جاوزت العالم الارضى فى شىء ، بل لمست بذلك ، قوة القوى ، وعدة النصر ، وسلاح كل ظفر .. فما حرك هذه الجسوم إلا دوافع نفسية ، ولا أهدر قيمة المواد الغوالى ، إلا معان ترفعت عليها وعلت عنها ، وليس بين المتقاتلين إلا غاية تمثلوا نبلها وحسبوا شرفها واختلفت فى ذلك الانظار وتشعبت الآراء فتلاحمت القوى ، واتقد الأتون ، والويل لمن خانه نُبله ، ورثت معنويته فضن بالتضحية ، وتقاعس عن بذل النفائس والأنفُس .. ففى الدنيا أبدا معان نبيلة ، وأهداف كريمة ، عاشت الحياة بمشقها وعملت من أجلها ، ولن تخطو الحياة بغير ذلك خطوة إلى الامام .

عقول المفكرين: إن أردد ألفاظ النبل والكرم، والتضحية والشرف، وأشباها لها، فإني مع هذا أوافق كل من يقول: إنما غاية الحياة هي اللذة ولا أنكر على مدع أن المحركات الطبيعية للإنسان ليست من العقل، بل من هذه اللذة، وأن المحرضات الشهوية هي التي تتحكم في العقل، وأنه صعب على العقل أن يتحكم فيها وأن الناس لهذا يخضعون في تقديرهم للمحرضات الشهوية الحاسية، وأنهم يطلبون من الغايات ما تتخيره وتمليه.. كل ذلك صحيح صحيح. لكن صحيح أيضا، أن في الحياة مع هذا كله نبلا وبذلا، وإيثارا وافتداء وأن في الحياة زهدا وتقشفا مع أن غايتها ليست إلا اللذة، ومنها يظهر ذلك متعارضا متناقضا، فلا تعارض فيه ولا تناقض .. وذلك أن هدف الانسان هو اللذة كما يجـــدها هو، وهو في التلذذ مختلف الرتبة متفاوت الدرجة، واللذائذ أمامه صنوف وطبقات، فلكل ما يشتهى كما يقدر، وكلٌ يشتهى ما يناسب درجته ومستواه ومنزلته، وكل النفوس تتساوى في انتعاشها وابتهاجها بما تختاره، بحيث لو نزلت النفس الراقية إلى درك مادونها لسرها ما يشتهيه ولو ارتقت النفس الساذجة إلى درجة مافوقها لوجدت لذة مايختاره، وبهذا يجد البطين النهم لذة شرهه كما يطمئن المتنسك إلى لذة صومه وحرمانه؛ تتجه نفسه إلى ذلك، وكلٌ محقق غايته، ملتمس لذته، ولكل مايطلب، فهذا يطلب الرخيص المبتذل المهين المتناول، وذلك يطلب الرفيع العميق، الممتع، بقـدر ما تأهلت له نفسه . . شخصٌ لا يعرف إلا ما يشتهيه مع كل حيوان أو كل حى، وشخص يطلب ما لايشعر به معه إلا أصحاب استعداد راق؛ وطموح عال، وعقل واسع . . وهكذا تتفاوت النفوس رقيا وانحطاطا، وتتفاوت مطالبها ضـعة ورفعة .

فالباذل الكريم متلذذ ، والمؤثر غيره على نفسه متلذذ ، والمتقشف الزاهد متلذذ ، كما أن الضنين الشحيح متلذذ والأنانى الفردى متلذذ ، والنهم الشهوانى متلذذ .. ولكل درجات مما عملوا . وباختلاف درجات الأفراد ، تختلف درجة أممهم ، وتتفاوت منازلها فى الرقى .

فيأيتها القلوب المؤمنة .. كيف تناول القرآن أصول التقدير ، وما هديه فى بيان الغايات الكريمة ، وأى اللذائذ الراقية ، قد تخير لكرام الناس فى حياتنا المشهودة ؟ التمسوا الجواب عن ذلك فيما علمه لرسله ، وهداهم إلى أن يقولوه لقومهم ، وأن يعلنوا أنه الغاية من أدائهم لرسالاتهم مع أنهم أولئك البشر الذين قرر القرآن بشريتهم ولم يثبت لهم وراءها شيئا ، فستجدون فى ذلك ما تريدون ، من هدى القرآن فى هذه المشكلات الدقيقة .. .

ستجدون حقيقة ثابتة مطردة فى الأديان كلها وستعرفون المطلب الذى ابتغاه الرسل جميعا من أدائهم رسالاتهم جميعا ، ستسمعون نوحا (ص) منذ الدهر الأول ، يقول لقومه [ويا قوم لا أسألكم عليه مالا ، إنْ أجرىَ إلاّ على الله] [وما أسألُكم عليه من أجر إنْ أجرَى إلاّ على رب العالمين] [فإن توليْتم فما سألتكُم من أجر ، إن أجرى إلا على الله ، وأُمِرتُ أن أكون من المسلمين] وتقرأون من قول المفسرين الأقدمين (1) فى بيان المسلمين الذين أمر نوح أن يكون منهم — إنهم «الذين لا يأخذون على تعليم الدين شيئا ولا يطلبون به دنيا ، وإن ذلك مقتضى الإسلام ، والذى كل مسلم مأمور به » واسمعوا كذلك فى الرسالات الأولى هودا يقول لقومه : [ويا قوم لا أسألُكُم عليه

(١) الزمخشرى — الكشاف ١ : ٥٨٧

أجراً إنْ أجرَى إلاّ على الذى فطَرنى أفلا تعقِلون] [وما أسألكم عليه من أجرٍ إن أجرى إلا على ربِّ العالمين] . وهكذا قال صالح لقومه ، تلك المقالة ، وقالها لوط ، كما قالها شعيب ، عليهم السلام جميعا فتقرأ فى سورة الشعراء ، من قصص هؤلاء الأنبياء تلك النغمة السماويه المرددة : [وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين] تردد بضع مرات فى سورة واحدة .. وإن يقلها سالفو الأنبياء مرة ومرة ، فقد قالها رسول القرآن (ص) مرارا فى صور متفننة متعددة فحينا ينفى ابتغاء الأجر بأن يهبهم مايطالبه فى مثل قوله : [قلْ ماسألتُكُم من أجرٍ فهو لكمْ إن أجرىَ إلاّ على الله ، وهو على كلِّ شىءٍ شهيد] ، وحينا ينفى الأجر بأن يطلب منهم ما هو خير لهم هم لا له هو ، فى مثل : [ما أسألكم عليه من أجرٍ إلا مَنْ شاءَ أن يتخذَ إلى ربِّه سبيلا] [قُل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودةَ فى القربى] أى برهم قرابتهم به وصلتهم ما بينه وبَيْنَهم من رحم ، وآنا يؤمر أن يجهر بنفى ابتغاء الأجر فى مثل قوله : [وما تسألُهم عليه من أجرٍ إنْ هو إلا ذِكرٌ للعالمين] [قل لا أسألكُمْ عليه أجرا إن هو إلا ذكرى للعالمين] [قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين ، إن هو إلا ذكر للعالمين ، ولتعلمُنَّ نبأه بعد حين] وطورا ينفى هذا الطلب فى صورة الاستفهام المبعد له مثل قوله فى غير موضع : [أمْ تسألُهم أجراً فهم من مَغرَم مُثقَلون] . وهكذا يصف القرآن الرسل بهذا العزوف عن الأجر فيقول : [اتبعوا من لا يسألكم أجراً وهمْ مهتدون] ويحس المفسرون الأولون إيحاء هذا

الهدي القرانى فيقول أحدهم [1] «طلب الأجر على تبليغ الوحى غير جائز كما جاء على لسان سائر الأنبياء .. والتبليغ واجب وطلب الأجر على أداء الواجب لا يليق بالمروءة وأيضا أنه يوجب التهمة ونقصان الحشمة»

أيتها القلوب المؤمنة .. تلك الرسالة التى أداها الأنبياء طوال حياتهم ، ولقوا فيها من العنت والإيذاء ما لقوا ، واحتملوا بسببها ما احتملوا ، وهى بعد ذلك عمل لا مال فيه ولا أجر من حطام الدنيا عليه ، ثم هم آخرة الأمر كما قال خاتمهم عليه السلام « نحن معاشر الأنبياء لا نورث ـ ما تركناه صدقه » وكذلك ترق النفس البشرية ، فترقى لذتها ويهون عندها ما حبب إلى النفس من زينة الدنيا ، وهكذا بسط القرآن هديه ، فاهتدى به علماء وجدوا لذتهم فى غير بيع العلم ، والارتزاق بالعلم ، حتى أثر عن الإمام الشافعى قوله: « وددت أن الناس انتفعوا بهذا العلم وما نسب إلى شىء منه » كما اهتدى بهذا الهدى عاملون ، نسوا أنفسهم ورفضوا أعراض الدنيا حين انهالت عليهم كما يروى من خبر مستكشف قديم لعهد صلاح الدين الأيوبى فى الحروب الصليبية إذ فشلت النيران المعروفة كلها فى إحراق أبراج عنيفة نصبها الأعداء وكان هذا المستكشف مكبا منذ عهد بعيد على دراسة المعروف من النيران والنفط لذلك العصر ، فكشف محرقا جديدا أقوى من كل ماعرف ، وقدمه لجيش صلاح الدين ، وقد بلغت القلوب الحناجر ، فأحرق ما تفنن الأعداء فى إقامته من أبراج لم يكن للجيش عليها قوة ، وقدر صلاح الدين العمل

---

(1) النيسابورى فى تفسيره على هامش الطبرى : ج ٢٥ : ٣٣ — ٣٤ بتصرف يسير جدا .

فبذل لهذا المستكشف الأموال الجزيلة ، والإقطاع الكثيرة فلم يقبل منه الجنة الفرد [1] كما يقول المؤرخون لعهده ، وقال : « إنما عملته لله تعالى ، ولا أريد الجزاء إلا منه » ومضى الرجل النبيل العظيم دون أن يحمل التاريخ عنه شيئا من بيان ، حتى لم يعرف اسمه فهو فى الكتب « إنسان من أهل دمشق » لا غير كان مولعا بجمع الآلات وتحصيل عقاقير تقوى عمل النار ، فكان من يعرفه يلومه على ذلك وينكره عليه ، فيقول : هذه حالة لم أبا سرها بنفسى وإنما أشتهى معرفتها [2] فأكرم به ولوعا وأعظم بها شهوة ، وعلى الله جزاء هذا الإنسان الكامل الذى لم يستهوه شىء ، وقد سما على كل أعراض الدنيا وترفع حتى عن الذكرى فسيرت البشائر والكتب بخير ما تم من نصر بسبب علمه وكشفه ، ولم تشر كتب التاريخ باسمه ولا وصفه . . كذا فلتكن البطولة النفسية التى تنبت تلك العظمة الخلقية ، أولئك وأمثالهم من العلماء والعاملين قوم قد ارتفعت نفوسهم فارتقت لذاتهم وسمت شهواتهم فتذوقوا تلك المتع التى سلف ذكرها ، متع من السنا والنور ، ومباهج من الرضا والحبور ولذائذ من الروح والنعم . وأصحاب هاتيك اللذائذ الناعمون بمثل تلك الرغبات ، هم الذين يستطيعون أن يتحكموا فى المحرضات الشهوية الحاسية ، ويخضعوها لقوى كريمة من العقل ، وهم راضون مغتبطون ، قادرون على هذا التحكم ظافرون فيه .. أولئك وأمثالهم ، من العالمين والعاملين ، قوم قد أدركوا حقيقة فطرتهم فى صلة الواحد منهم بالجماعة التى هو فرد منها ، صلة يستحيل انقطاعها ورابطة لا يمكن انفصامها

(١ و ٢) ابن الأثير — الكامل ١٢ : ١٨ و ١٩

فيتجسم شعورهم بأن خيرهم لن يكمل إلا فى جماعتهم ، وسعادتهم لن تتم إلا بسعادة أممهم ، فهم يعملون من أجلها ، متغلبة فيهم كرائم النزعات على الوقتى الحيوانى منها ، ونسمع منهم مثل قول هذا المستكشف الشرقى القديم عما استكشف وأهدى : « إنما عملته لله تعالى ولا أريد الجزاء إلا منه .. »

فليذكر المفكرون .. أن حق الأمة ومصلحة الجماعة إنما يمثلها القرآن ، وتضعها النظرة الاسلامية فيما تسميه حق الله ، فإذا قال هذا المستكشف قولته السابقة فإنما يريد ما يقوله المحدثون ، حين يذكرون خير الأمة ، ويعملون من أجل المجتمع ... لكن هناك فرقا فى جانب ، هو : أن أهل القرآن عند ارتقاب جزاء الله الذى لم يرد هذا الانسان الكامل جزاء إلا منه ، يؤيده عندهم إيمان به ، وثقة أكيدة بوعده ، واطمئنان كامل إلى إنجازه ، فهم بتأثير ذلك ، أسرع تلبية لخير الأمة ، إذا مادعوا ،وأبلغ نسيانا لأشخاصهم إذا ما لبوا الدعوة وهكذا قال قائلهم : « لاأريد الجزاء إلا منه » وقد أروى من العلم شهوته ، وأرضى ولوعه بما شغف به وهو بعد كل أولئك واثق بجزائه ، ظافر بلذة إرضاء عقيدته ... وتلك كلها من جدوى الدين والإيمان فى تسيير الحياة وتدبيرها .

وإن ما أحدث عنه من اللذات الراقية التى تنسى أولئك الفاضلين أشخاصهم ، وتوحد بين خيرهم وسعادة أممهم ، والتى اكتفى بها رسل الله الكرام فيما أدوا من رسالات ، والتى بذلت العلم ينتفع به الناس فيما يريد الشافعى دون أن ينسب إليه منه شىء ، والتى أرخصت كشف الكاشف القديم فبذله لغير عوض ، تلك اللذات الراقية ليست من بعيد الفلسفة ولا

عسير الآمال ، وممنع المطالب ، بل هى منزلة قد ارتقى إليها الكرام جميعا وبلغها فى الأمم السعيدة ، رجال العلم ورواد الكشف ، وأهل الجهاد ، ولولاها ما أقدم رجل العلم على تجاريب يجريها حتى فى نفسه ، ولما جازف رجل الكشف يقتحم المجاهيل والمخاطر ، ولما حمل المجاهد يجالد المنايا ويعانق الفواتك المدمرة .. وما خطت الانسانية خطوة واحده فى سبيل رقيها إلا على يد أولئك الذين استهوتهم اللذائذ الراقية فنسوا أنفسهم ، وسعدوا بخير من حولهم ، أولئك رسل الحضارة وتلك رسالاتهم .

وبعد ، فيا أهل الشرق : لقد استكثر المحدثون فيكم من ذكر الرسالات وأصحابها ، فللسياسى فيكم رسالة وللعالم رسالة ، وللمتفنن رسالة ، وللعامل رسالة ، وللهيئات كالأفراد رسالاتها ، فللمدرسة رسالة وللجامعة رسالة وللنقابة رسالة وللبرلمان رسالة ، إلى مالا آخر له .. بل أكثر المحدثون من ذكر الوحى والإيحاء بعد ذكر الرسالات ، فهذا وحى الأقلام ، وذاك وحى الصحف ..

أفتكون تلك فيكم رجعة من الشرقيين إلى روح الشرق ، مهد الرسالات؟ ليكن ذلك ، أو لا يكون . لكم ما أردتم من دعوى الرسالة . لكن خبرونى ماذا ابتغى رسلكم ؟ وأى غاية رجوا من رسالاتهم وأين كل هذا من حال الرسل والرسالات ، ألكم فيهم أسوة حسنة . .. لعل وعسى ... فسنرى . ..

والسلام على من اتبع الهدى .

رسل ورسالات

— ٢ —

سلام الله عليكم ورحمته . [الذين يُبَلِّغون رسالاتِ اللهِ ، ويخشونه ، ولا يخشون أحداً إلا الله وكفى بالله حسيبا] .. طلبنا هدى القرآن ، فى تقدير قيم الأشخاص والأشياء والأعمال ، ومعرفة الغايات التى يتبعها الناس فى حياتهم ، والبواعث التى يصدرون عنها ، ويتجهون بها فى سلوكهم ، فعرفنا أن غاية كل حى هى تحقيق مايسره ، وأن الناس يطلبون من الغايات ما يحقق لذاتهم ، وليس للحياة غاية إلا ذلك ، وأن اللذائذ صنوف وطبقات ، وأن النفوس تتفاوت رقيا وانحطاطا ، فتتفاوت بذلك لذائذها المنشودة ، ضعة ورفعة ، وكرام الناس إنما يطلبون اللذائذ الرفيعة .. وقد وجدنا المثل ، من هؤلاء ، فى الرسل الكرام ، عليهم السلام ، وفى غايتهم من جهادهم العنيف ، أداء لرسالاتهم ، وفهمنا بذلك ، كيف أن رسول القرآن عليه السلام ، يعرض عليه قومه ، الملك ، والمال ، والجاه ، والعزة إذ يقولون له: [إن كنت إنما تريدُ مما جئتَ به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكونَ أكثرَنا مالاً ، وإن كنتَ إنما تريدُ به شرفاً ، سوَّدْناك علينا، حتى لا نقطعَ أمراً دونَك ، وإن كنتَ تريدُ مُلكا ملكناك علينا] إلى أشباه من هذا الإغراء فيقول فى الرد عليهم ، كلمته ، التى ذهبت وستذهب إلى الأبد مثلا للإرادة الحازمة الباطشة تلك هى قوله : « لو وضعوا الشمس فى يمينى ، والقمر فى يسارى ، على أن أترك

هذا الأمر حتى يظهره الله . أو أهلك فيه ماتركته » وهكذا اختار غايتهمن الحياةبعيدة عالية ، ومضى يرفض الملك والسؤدد ، والشرف ، والمال ، ويردد ما أمره الله أن يقوله لقومه : [ما أسألكم عليه من أجر ، وما أنا من المتكلفين] [لا أسألكم عليه أجراً إنْ هو إلا ذكرى للعالمين] [ما أسألكم عليه من أجرٍ فهو لكم] وهى السنة الكريمة للرسل الكرام فى الأديان جميعا ، لايطلبون غاية رخيصة من رسالاتهم ، ولالذة وضيعة ولا عرضا قريباً .. وإذا ماعرفنا كيف نختار غايتنا الكريمة فى هذه الحياة فقد بقى أن نعرف هدى القرآن . . فى السير إلى تحقيق تلك الغاية المرجوة والوصول إلى المقصد الجليل .. كيف يخوض الناس الصعاب إلى أهدافهم ؟ .. كيف يواجهون مايعترضهم من عقبات ، ماذا يعدون لتذليلها والتغلب عليها ؟ .

أيتها العقول المفكرة ..

إن النـاس ليتفاوتون فى ذلك ، وتختلف نفوسهم فى تلقى الحوادث والتأثر بهـا . . فنهم ضعيف هين على روحه إن صح أن تحدثه نفسه حينـا ما بغاية كريمة أو يدفع إليها دفعاً ، فتلقاه صعوبة ويواجهه ألم ، نـكص على عقبيه وفر هارباً من التعب يؤثر السلامة ، مغتبطاً بالنجاة . . لايسمو إلى شئ وراء الرغبة اللائحة ، والشهوة المتبادرة . وهذا الصنف لا يرجى منه خير . ولن يحقق أملا مرجواً لجماعة يعيش فيها . . تلك أفئدة هواء .

وفى الناس من قد يثبت حيناً أمام الصعوبة ، ويواجهها فترة ما ، لـكن لا يلبث أن ينحال رويداً رويداً ، فيرتد مدبراً ، قانعاً من الغنيمة بالإياب ،

أولئك مبعدون عن كرائم الغايات ، لا يسفون على عظائم الأغراض . . وتلك نفوس مخلدة إلى الثرى . . لكن وراء هؤلاء وهؤلاء من أقوياء النفوس ، وعظماء القلوب من إذا لقوا فى سبيل المكرمات مصاعب وآلاما كان وقعها على نفوسهم ، غير مرير ولا كريه ولا مزعج ، بل شعروا أنهم إنما يلقون هذه الآلام فى سبيل غايات عظيمة ، ترخص فى سبيلها الغوالى ، ويبذل المصون ؛ فاستساغوا آلامهم ، واستهانوا بها ، بل وجدوا فى احتمالها رضاء نفسياً ، يحيل المؤلم لذيذاً، ويجعل الاحتمال مصدر متعة وطمأنينة . . وتلتمسون أمثال هؤلاء ، فتعثرون عليهم فى مختلف ميادين الحياة ، بين الجماعات المناضلة فى جد ، والمؤدية لرسالاتها . . ففى الحياة العقلية العلمية ، ترونهم ، وقد تيسر لهم الوصول القريب ، وأمكنهم الإجمال الرخيص السهل، لكنهم عافوه وتركوه ، وآثروا البحث المتعب ، والدرس المضنى ، والتجربة الخطرة ، التى لا تؤجر ولا تقدر ، بل تحملهم حيناً مشقة المخالفة ، وخطر مواجهة الناس بما لم يألفوا . وثورتهم على من يهاجم قديمهم المقدس — إلا أن ذلك وأكثر منه لا يردع أصحاب هذه الأرواح ، الذين يخلقون اللذة من ألمهم ، فى سبيل غايات علمية وعقلية راقية . . وكذلك ترونهم فى الحياة العملية المادية ، لا يفتنهم الربح من حيث كان ، ولا يغريهم الثراء عن أى طريق ، بل لهم فى الأعمال غايات بعيدة شاقة جريئة ، تكلفهم آلاما ومغامرات ، يجدون فيها رضا وراحة ويلقونها مطمئنين . . ثم ترونهم فى الحياة الوجدانية القلبية . . لا تصيبهم الشهوة المادية ، ولا يتبعون الهوى حيث مال ، بل لهم فى ذلك مطامح نبيلة سامية يقدرون

فيها اليسير والجليل ، ويحسون بما يعارض عواطفهم ورغباتهم ، من اعتبارات بعيدة فيكبحون قلوبهم ، وينطوون على آلامهم ، فى نبل وشمم ، كالآساد الجريحة ، لا تطأطئ رأساً ، ولا تذل هامة،لهم فى آلامهم واحتمالها لذة لا تجدها إلا نفوسهم ، ولا تقدرها إلا أرواحهم ، ومن يفهم عنهم ، ويسمو إلى آفاقهم .

تجد هدى القرآن عن هذا فى حديث الرسل الكرام ، وما لقوا فى سبيل تحقيق رسالاتهم ، وكيف واجهوا ذلك واحتملوه ، وماذا علمهم الله أن يفعلوا فى هذا السبيل .. فقد كانت غاياتهم من السمو ، بالمحل الأرفع ، وكان السبيل إليها ، من الوعورة بمكان بعيد . كان الواحد منهم فرداً يلقى أمة ، ووحيداً يناضل شعباً ، ويصارع أجيالا . . فنقرأ فى غير موضع من القرآن، أخبار تكذيبهم وسبهم فى إقذاع جرئ ، من مثل قول قومهم لواحد منهم : [إنا لنراك فى ضلال مبين] [إنا لنراك فى سفاهة ، وإنا لنظنك من الكاذبين ، ساحر مجنون] الخ . بل نراهم يكيدون لهم بالقوة الباطشة الطائشة : [وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن فى ملتنا] [وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك] أى يعجزوك عن الحركة [أو يقتلوك أو يخرجوك ، ويمكرون ويمكر الله ، والله خير الماكرين] كان ذلك وما يشبهه من عنف أهوج ، تصيب الرسل ممن يدعونهم ، فإذا القرآن يعالجه ، بتهوين وقعه على الرسل ، وإصلاح نفسيتهم وإرشادهم إلى ما يحفظ طمأنينتهم . . من مثل قوله [فلا تبتئس بما كانوا يفعلون] [ولا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر إنهم لن يضروا

الله شيئا] واسمه إذ يأمر الرسول بالصبر على ما يقال ، فيعينه على الصبر بأن يذكره بالقدوة الصالحة من أسلافه الأقوياء فيقول : [فاصبر على ما يقولون ، واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب] والأيد القوة والاضطلاع بالأعباء والمشاق ، ويقول : [فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل] واستمع إذ يغريه بتسبيح الله ليعتز بعزته ، ويستمد القوة من قوته ، ويحتفظ بالمقاومة والاحتمال فى قوله : [فاصبْر على مايقولون ، وسبح بحمد ربك ، قبل طلوع الشمس وقبل الغروب ، ومن الليل فسبِّحْه وأدبارَ السجود] [فاصبر على مايقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ومن آناء الليل فسبح وأطرافَ النهار لعلك ترضى] والشاعر بقسمات الحسن الفنى فى نظم القرآن ، والمدرك لإشاراته النفسية ، يقف عند ختمه الآية الأخيرة يترجى الرضاء ، وقوله : [وسبح بحمد ربك .. لعلك ترضى] يقف وقفة يتمثل فيها ذلك المعنى النفسى الذى أدرنا عليه هذا الحديث من تقبل الألم والشعور فى ذلك باللذة إذ لا يكون هذا إلا حين يكون الرضا النفسى ، ويظفر به الانسان فتكون العظمة الروحية والمقاومة النبيلة ، وجلال الترفع ، ولأصحاب هذه النفوس يكون الأمر بالصبر ، بل يؤمرون بأكثر منه وأرق ، كالذى نسمعه فى الآية الثانية : [واصبرْ على ما يقولون واهجرْهُم هجراً جميلا] وإن هذا الهجر الجميل لنفحة من الروح القرانى الذى تنتهى به الأرواح الحساسة فى نعيم سماوى .. ولقد تهيأ لهؤلاء الرسل العظماء ، أن يصبروا ويهجروا الهجر الجميل فكان الواحد منهم ، يلقى بالقولة الفاجرة الوقحة ، بل بالفعلة الشائنة فيجيبها بالابتسامة الهادئة أو الدعوة الصالحة .. وجماعهم الرياضة

القرآنية يوطنون أنفسهم على احتمال الأذى ويلقونه هينا عليهم بتهوينه له في مثل قوله : [لن يَضُرُّوكم إلا أذىً وإن يقاتلوكم يُولوكم الأدبار، ثم لا يُنصرون] ولقد طمأنهم إلى أن التحمل في اعتزاز بالله وثقة ينفي عنهم الضر ، [وأن تصبروا وتتقوا لا يَضُرُّكم كيدُهم شيئاً إن الله بما يَعْمَلُونَ محيط] فانتهى الأمر بهم إلى أن يعلنوا في تأكيد عنيف وقوة ، صبرهم على الإيذاء ، كما في الحوار التالي :[قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشرٌ مثلُكم ولكنَّ الله يَمُنُّ على من يشاء من عباده ، وما كان لنا أن نأتِيَكم بسلطانٍ إلا بإذنِ الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون ومالنا ألا نتوكل على الله ، وقد هدانا سبلنا ، ولنصبِرَنّ على ما آذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون] وليُصغ المستمعون الكرام إلى أن المتكلمين المعلنين صبرهم بهذه القوة ، قد صدروا قولهم بما سمعتم [إن نحن إلا بشر مثلكم] لتعرفوا أن بشريتكم أهل لذلك النبل قادرة على هذا الاحتمال ، مستطيعة أن تجد في الألم لغاية نبيله ، معانى من الغبطة والارتياح ، والرضا النفسي ، تعدها لذائذ ومسرات وهكذا انتهى الأمر بالرسل ، إلى الظفر بغاياتهم ، والأداء الصحيح لرسالاتهم ، على ماحكاه لرسول القرآن في قوله : [ولقد كُذِّبَتْ رسلٌ من قبلك فصَبَروا على ما كُذِّبُوا ، وأُوذوا حتى أتاهم نصرنا ، ولا مبدِّلَ لكلماتِ الله ، ولقد جاءكَ من نبأ المرسلين] .

على هـــذا الأساس النفسي بنى القاومون مقاوماتهم ، وأداروا معاركهم ، ضد أعداء أكثر منهم عدداً ، بل هم لا يذكرون إلى جانب كثرتهم • كما كانت القوة الساحقة في يد خصومهم ، بل كانوا هم من

الضعاف المغلوبين . . أولئك هم المؤمنون الأوائل بالأديان ، الثابتون على المحن الرهيبة من أعداء الدعوات . . فقد كان مقاومو الدعوة الإسلامية فى أول عهدها يعدون لمن يعتنقها مايليق بحاله من صنوف الإعنات ، فإن كان الرجل قد أسلم ، له شرف ومنعة ، أنبوه وأخزوه ، يقولون له : « تركت دين أبيك وهو خير منك ؟ لنسفهن حلمك ولنفيلن رأيك ولنضعن شرفك » وإن كان تاجرا قالوا له : « والله لنكسدن تجارتك ، ولنهلكن مالك » وإن كان ضعيفاً ضربوه وأغروا به ، ووصلوا فى إيذاء هؤلاء الضعفاء والإغراء بهم حداً بعيدا ، كالذى روى من إلقاء بلال الحبشي على الرمل تحت الشمس فى وقدة بلاد العرب ، ووضع حجر على صدره ، وتركه ليموت . . . ولكن ماذا كان أثر كل هذا ونتيجته ؟ كان الضعاف فى الجاه والمنزلة ، أقوياء فى النفس والقلب . قد أدركوا تسامى الغاية الشريفة التى طمحوا إليها ، عند إيمانهم بالدين الجديد ، فكانوا يقتحمون وديان الآلام إلى غايتهم وهم شاعرون بعظمة مايبذلونه فى هذا السبيل ، لعظمة مايطالبون ويأملون ، فيهون وقع الآلام ويعود الاحتمال لذة ومتعة ترضاها النفس كما تبينا .. ويعرف — مستمعى الكرام — أن بلالا كان يحتمل ما وصف من عذابه السابق ، رضيا سعيدا ، لا يزيد على ترديد أسم الله مكررا كلمة : أَحدٌ . أَحدٌ . وقد روى أن امرأة مؤمنة أبت الفتنة فى دينها واحتملت العذاب حتى ماتت، دون أن ترجع عن عقيدتها . .

إنا لنحس من صنيع القرآن أنه يعتمد اعتمادا قويا ، على قوة النفوس المؤمنة ، ومقدرتها الكبرى على الاحتمال الذى يستخرج من الآلام لذائذ ، ومن المتاعب راحة نفسية ، فهو لهذا يجابههم بما سيلقون من شدائد وقد أكد وقوعها ، وحشد مختلف صنوفها ، مقررا هوانها بالصبر والتقوى ،

ذلك مانحسه فى مثل قوله مخاطبا المؤمنين : [لَتُبْلَوُنّ فى أموالكم وأنفسكم ، وَلَتَسْمَعُنّ من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ، ومن الذين أشركوا أذى كثيرا ، وإنْ تصبِرُوا ، وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور] .

أيتها النفوس النبيلة :

لا تحسبي أن الحديث عن هذا الألم اللذيذ ، من زخرف القول ، ومعسول الكلام ، لا وربك فإنك لتجدين بالتجربة الواقعة ، أن قوة الألم ، إنما تستمد أكثر ما تستمد ، من وهم التألم وتهيب المؤلم ، وأن وقع الألم يخف حتى يهون كلما قل وهم التــألم وتهيبه ، ولتلاحظى بالتجربة العملية فملا ، أن من أقدم على المؤلم وقد خف تقديره للألم ، وتهيبه له ، وأمسك عن الشكوى ، وأنف الاستغاثة ، قوى شعوره بالقدرة على التحمل ، وهان عليه وقع الألم المادى وخف أثره حقا ... وهكذا احتمل أصحاب النفوس النبيلة آلامهم ، ذاكرين كريم غاياتهم وعظم اعتراضهم ، فتلذذوا باحتمالهم .

ياشباب الشرق وعدة الزمن :

أكثروا من ذكر الرسالات وأصحابها ، متى أُبلوا ، وأهون رسالتكم فى الحياة أن تثبتوا وجودكم ، وتحموا كتابكم ، وهذا يتطلب منكم نفوسا تلقى الصعاب مبتسمة ، وتواجه الآلام راضية ، وتبتلى فى الأموال والأنفس فتصبر وتتقى ، وإنكم يا أبناء الشرق لأهل ذاك وأصحابه ما دام فيكم قد ظهر هذا القرآن .

القادة الرسل

— ١ —

[اللهُ يصطفى من الملائكةِ رُسُلاً ومن الناسِ ، إن الله سميعٌ بصيرٌ] .

فى هذه الأيام التى تتكشف فيها الإنسانية عن أروع ما تستطيع من بطولة ، وأنبل ما تطيق من تضحية ، والتى تقاس فيها حيوية الأمم بما يبذل أفرادها من أنفسهم ، وما يعطون من أرواحهم ، والتى تقسم فيها حظوظ الشعوب من البقاء والنجاح ، بقدر ما يمنحها شبانها من دمائهم وأعصابهم .

فى هذه الأيام التى تكتب فيها النجاة للملايين بوقفة فردية كريمة ، أو يقظة نفسية لشخص ، أو ثبات أعصاب رجل ، أو نظرة عين مسددة .. فى هذه الأيام تستخرج الحرب خير ما فى النفوس الإنسانية من معنى الغيرية والإيثار ، وتمتحن الحرب — مهما يكن هدفها ومرماها — متانة الأمة ، وسلامة بنائها ، بسلامة نفوس أفرادها ، وقوة أرواحهم ..

فى هذه الأيام ، وتلك الظروف ، يحسن أن نتجه بالحديث عن (هدى القرآن) إلى تبعات الحياة الناهضة ، وحاجة الأمم المجاهدة ، وفى القرآن عنها المتع المسعد ... لقد اتجه الحديث إلى الرسل ، فتناول بشريتهم وإمعان القرآن فى تقريرها ، وتمسكه بها ، وجليل ما تستطيع هذه البشرية أن تصنعه ، حين تصفو وتشف ، وتسلم وتصح . . فتهدى إلى تخير الغايات الكريمة ، وتبين سبيل الوصول إليها ، والطريق لتحقيقها ، ثم لا يزال فى حديث القرآن عن الرسل مجال أى مجال لهدى كريم ، فى تكوين الرجال وتقويمهم ،

لتتم على أيديهم جلائل الأعمال ، وعظائم الآثار ، كما أتم أولئك الرسل ، تأسيس الأديان ، وتمدين الأمم وإقامة الدول .

أيها الطامعون فى الحياة الكريمة :

إن دولة قد غلبت اليوم بعد غَلَب ونصر قديم ، وزلت بها القدم ، بعد تسديد وثبات ، فلما ذهب رجالها يعتبرون بما أصابهم ، ويلتمسون وسائل النهوض من كبوتهم ، سمعنا وزير التربية فيها يقول لشبيبتها : « إن فرنسا ينقصها رؤساء ورجال وعليكم أن تمدوها بهم »[1]. تلك حاجة الأمة فى هزيمة طارئة ، وهذا هو الشرق ، قد انقطع بحاضره غير المرضى ، عن ماضيه القوى ، وقد استبهم مستقبله ، واضطرب مكانه فى الحياة ، ولم تستقر له قدم بين أصحاب الشأن فيها ، فكم ذا ينقصه ، من رؤساء ورجال ، عليكم ياشبانه أن تمدوه بها .

إن لهذا الشرق ، تجارب اجتماعية قديمة مكررة فى خلق القادة والرجال وإعدادهم ، فهاهم أولاء رسله وهو مهبطهم ، قد أقاموا أديانا ، وتحكموا ــ وما زالوا ــ يتحكمون حتى اليوم فى عقول الدنيا وقلوبها ، وهم الذين خطوا بالحضارة ــ كما يصف التاريخ ــ أوسع الخطوات وأجرأها ، وقادوا العالم منذ عصور سحيقة فسددوا خطاه نحو النور ، وأبلغوه من التحضر شأوا بعيدا إذ أخذوا بأيدى أممهم إلى حياة الاستقرار والرق ، فحملت مصابيح المدنية ، وأقامت على الأرض دولا عتيدة ، حكمت وأسست وجربت وتعلمت ، هكذا فعل نوح ، وموسى ، ومحمد ، وغيرهم من الأنبياء

(١) التلغرافات الخارجية ، الأهرام ٨/٢/١٩٤١ .

عليهم السلام ، وقد عرض القرآن أخيرا للحديث المتدبر من أمرهم جميعاً ، ولفت إلى السنن المسيطرة ، على حياة هؤلاء الرسل القادة وأممهم ، فمن هدى القرآن يستطيع الشرق ـ لوأراد واعتزم ـ أن يلتمس أنباء الرؤساء والرجال ، الذين يحتاج إليهم أعنف الحاجة وأقساها ، وحين يهتدى الشرق بهدى القرآن ، فى هذا ، فهو إنما ينتفع بسابق تجاريبه ، وإنما يتحدث القرآن إلى قلوب أهله وعقولهم ، التى اتصلت اتصالا تاريخيا وثيقا ، بما أسس أولئك الرسل فى بلاده نفسها ، فتكون تلك القلوب والعقول أسرع استجابة وأكثر اطمئنانا ، لما تنبه إليه من ذلك . وأرجى مطاوعة ومسارعة بعد الذى رأت من أحداث قاسية وأهوال كافية ..

ياعقولا مفكرة .. إذا ما اشتركت كثرة من الناس فى شعور واحد وتداعت إلى غرض متحد ، كانت لهم بذلك وحدة معنوية ، وصلة نفسية ، تؤثر فى حياة هذه الكثرة وتفكيرها حتى لوكان كل فرد منها فى مكان أو تناءت بأهلها الديار ، وتلك هى الجماعة النفسية التى يتولى الباحثون درس نواميس حياتها وقوانينها فيجدون دائماً ، أن هذه الجماعة يتصدرها ويتقدم لقيادتها ، فرد منها تؤهله لذلك شخصيته ونفوذه ، ولاتلبث هذه الجماعة أن تلقى إليه قيادها ، وتمنحه طاعتها ، لأنها تحتاج بفطرتها البشرية إلى ذلك ، وتسعى لتحقيقه لتجمع به شملها ، وترضى حاجة نفسها .. وفى تجمع الجماعة وتصدر القائد اعتبارات نفسية نلحظها كاملة واضحة فى الرسول وأمته ، وصلتها به ، ومنزلته منها .. فلئن قام وجود الجماعة ، على معنى روحى مشترك ، فإن أمة الرسول إنما تلتقى حول أصول دعوته ،

وما جاءها به من أفكار ومبادىء ، يريد أن يحييها بها حياة جديدة ، وبهذا تكون الواسطة المعنوية فى هذا المجتمع واضحة متميزة عنها فى أى مجتمع آخر ، وإذا ما كان القائد إنما يتصدر جماعته لمعنى فى شخصيته واعتبار من نفوذه ، وقدرة له على تمثيل الفكرة التى يجتمعون حولها ، فالرسول فى أمته هو مصدر إبلاغ الفكرة وطريق تلقيها وفهمها . . .

وتجد هذه المعانى واضحة فى إشارات القران إلى أحوال الرسل ومنزلتهم من قومهم ، فالرسل صفوة بشرية قادرة على ما اضطلعت به . . [إنّ الله اصطفى آدمَ ونوحاً وآل إبراهيمَ وآل عمرانَ على العالمين] [وتلك حجّتُنا آتيناها إبراهيمَ على قومِه ، نرفعُ درجاتٍ مَنْ نشاءُ إنّ ربّك حكيمٌ عليمٌ] والرسول أقرب نفسا إلى قومه وهم عنه أفهم [وما أرسَلْنا من رسولٍ إلا بلسانِ قَوْمه ليُبَيّنَ لهم] . وهو منهم [كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم يتلو عليكم آياتنا ويُزَكّيكُم ويُعَلّمُكم الكتابَ والحكمةَ] هو من أنفسهم [لقد جاءَكم رسولٌ من أنفسكُم عزيزٌ عليه ما عَنِتُّمْ حريصٌ عليكم بالمؤمنين رءوفٌ رحيمٌ] . وهم قوم [لقد أرسلنا نوحا إلى قومه] وهو أخوهم . [وإلى عادٍ أخوهم هوداً] . [وإلى ثمود أخاهم صالحاً] ، وهكذا نرى المعنى النفسى فى تكون أمة الرسول وفى صلة بها ، واضحا أتم الوضوح كاملا أكثر ما يمكن الكمال باقيا أطول ما يكون البقاء ، والرسول بهذا هو الصورة المثالية للقائد فى جماعة . .

أيها الشبان :

أنكم ستُمدّون هذا الشرق بالرؤساء والرجال ، ما فى ذلك شك ،

ولا لكم منه مفر ، وإن مصاير الأمور لتدفعكم إلى ذلك دفعا ، فتعالوا أحدثكم عن القادة الذين أرجو أن تكونوهم ، أو أن تخلقوهم وتؤيدوهم لتمدوا بهم شرقكم . . أولئك هم القادة الرسل الذين فيهم أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر .

تعالوا أحدثكم أولا ، عن فرق ما بين هؤلاء القادة الرسل ، وبين صنوف أخرى من القادة ، توجدهم حاجة الجماعات الفطرية الملحة ، إلى من يتقدم ويتصدر صنوف أخرى من القادة ، يمكّن لهم فى مراكزهم ، تعطش الجماعة إلى من تطيعه وتصدره ، وهم أضعف من أن يحملوا هذه الأمانة ، أو يحلوا هذه المنزلة السامية الخطيرة .

يا شباب . . . إن القادة الرسل يمتازون بأنهم مصادر عقيدة ، ومنبع إيمان لا مؤمنون وأصحاب عقيدة — فحسب . إنهم هم الذين يعلمّون الناس الإيمان ويمنحونه قلوبهم ، ويفيضونه على أرواحهم ، هم الذين يروضون الناس على جعل كل شىء فى الدنيا وراء المعتقد ، وأهون منه وأرخص ، كما يسمع من القرآن [قُلْ إن كان آباؤُكم وأبناؤُكم وإخوانُكم وأزواجُكم ، وعشيرتُكم وأموالٌ اقترفتموها وتجارةٌ تخشَوْن كسادَها ، ومساكنُ ترضَونها ، أحب إليكم من الله ورسولِه وجهادٍ فى سبيله ، فتربَّصوا حتى يأتى اللهُ بأمرِه والله لا يهدى القومَ الفاسقين) . وإذا كان القادة الرسل هم الذين يُسمفون الناس بهذا الإيمان فإن كما له فى أنفسهم ، ليمكنهم من السيطرة على قلوب أممهم ، والاستيلاء على نفوس جماعاتهم فيدفعونها دفعا متوثبا إلى أبعد الأهداف وأمتع الغايات ، وعلى قدر اعتقادهم تكون قوة تأثيرهم ، ووقعُ

أقوالهم ، وبمقدار تسبعهم بأفكارهم ، وتملكها لنفوسهم يستطيعون توليد القوة الهائلة فى النفوس ، والأجتذاب الخاطف للارواح ، والأختلاب الساحر للعقول ، فيخلقون من الجماعات — مهما تكن درجة قوتها المادية أكبر قوة ، سيّرت الحوادث ، وبنت التاريخ ، ودفعت بالحضارة قدما .

شأن القادة الرسل ، أما القادة الذين يخلقهم الحاجه ، ويمكن لهم جنوحُ الجماعة إلى المسيطر ، فهؤلاء مقفرة قلوبهم من روح العقيدة وقوة الإيمان ، فلايدلهم بقوة هذا المعين الروحى الطاهر ، وإنما يستمدون مالهم من قوى نسبية ، من خلابة الأقوال الطنانة ، واستهواء الألفاظ الخادعة ألا سفعلة العبادات الفارغة ، يمسون لها نواحى ضعف بشرية لاجمود لها ولا ثبات فيها ، حين يمس القادة الرسل أو ثار النفوس ، ويسلّطون قوة إيمانهم على من حولهم فيمسون شغاف قلوبهم ، ويحيلونهم إنساً لا يألون ولا يهنون ولا يتهنون .

ياشباب ... القادة الرسل ، إنما يتحدثون من أممهم إلى عناصر طاهرة ، يتحدثون إلى أكرم من فى جماعتهم من نفوس تداعت بإيمان وآلفت بينها عقيدة ، وثيقة العروة لا ينفصم لها رباط ، أما قادة الحاجة ، فإنما يتحدثون إلى أصحاب أهواء تافهة وطلاب حطام هين ، فيممدون إلى إثارة المشاعر المنحطة فيهم ، ويقصدون إلى إهاجة الأهواء المبتذلة ، يتملقون ضعفهم ويكسبون رضاهم الذى لاقوة فيه ، ولا بقاء له ، وهكذا إذا ما كوّن القادة الرسل من مؤمنيهم أداة فعالة نافذة طويلة العمر ، خالدة ، جمع قادة الحاجه طنينا فارغاً ، وضجيجا أجوف كاذباً ، وأفشل الأشياء أجهرها صوتا ،

والطبل الفارغ آلة الدوىّ المهرج ، فحينما نجد أن القادة الرسل والمؤمنين الضعاف معهم هم دائما أبدا القوة التى غيرت وجه الدنيا ، وحرّ الأكواق ترى أن هذه الكثرة الضاجة ، لا تقدم بل تؤخر ، فلاثبات لقوتها الخادعة ولا يدلها بفعل ، وليس وراءها أثر ، يعادل ما أضاعت من عمر ، وما جمعت من عدد .

يا شباب . . كيف أجدك الآن ، إذ تسمع الحديث عن القادة الرسل والقادة الزيوف ، وأثر العقيدة فى الأولين ، تزيد قوة تأثيرهم على جماعتهم المؤمنة التى تتضاعف قوتها بالاعتقادعشرات أمثالها ، حتى لا تقهر ولا تصد وأثر فقر القلوب فى الصنف الثانى من القادة ، فلا هو بالغ فى قلوب جماعته الطامعة المنتفعة ، ولاهى واجدة من القوة ما يحدث أثرا أو يحقق أملا . ... أيخدعك وهم أيها الشباب ، فتحسب هذه القوة المعنوية أو الضعف المعنوى ضربامن التزيد أو المبالغة !! وتظن المادةوحدها مصدر كل قوة ، وتحسب الأعزل أو الأضعف ماديا هو المغلوب لا محالة حين تتصارع الكثرةوالسلاح ؟ أعيذك من أن تظن ذلك أو يطول وهمك فيه ، فتلك القوى المعنوية قد أثبتتها التجارب النفسية إثباتا واضحا عملياً ، لا قولا نظريا ، ثم هذا أنت تشهد اليوم من تجاريب الحياة ، دلائل هذا وآياته شاخصة ماثلة فى هذه الحرب ... تشهدها فى غير أمة ، وغير موطن ... فرئيس قوى العقيدة ، وطيد الثقة يحـدث أمه عن غد منتظر ، وأمل مرتقب ، حديث الشاهد المتأكد المستوثق مما فى يده ، فيرى قومه ويسمعون ويثبتون ويقدمون ، وإنْ جاهرهم بأنهم أقل عتاداً ، وأنقص قوة ، وأحوج إلى مدد من السلاح ،

قد دبَّر أمره ، وأعد مصدره ... وهذه قلة محدودة العدد والمقدرة ، تعتز بنفسها ، فتصمد لكثرة موفورة ، وقوة مذخورة وتلقاها جريئة مقدمة فتغنم وتأسر ، وتنتصر ، وإذا الكثرة العددية هباء ، تريد الفرار فيصبح عتادها وذخيرتها عبئا عليها ثقيلا ، يعوق الجرى ، ويعطل الهرب . . وتدع هذا وذاك إلى الحياة الفردية وتجاربك الشخصية ، فتجد فيها ما يغنيك ، من الدلائل والشواهد ، عن الحديث المعاد فى خطر القوة النفسية وأنها وحدها العماد والسناد ... وليس أحد ياشباب الشرق أحوج منك ، إلى استحضار تجارب التاريخ الطويلة ، وتجارب الدنيا الشاهدة ليطمئن اطمئنانا عميقا إلى هذه الحقيقة عن القوة القلبية فتؤمن بنفسك وقومك وتعرف أن هذه القوة هى معقد الأمل ومناط الرجاء ، وأنك بها وحدها أولا بالغ ما تريد ، ظافر بما تعتزم ، متى صح عزمك ، ومضت إرادتك .

ياشباب ...

إن القواد قد يوجدون فى الأمم دائما توجدهم حاجتها إليهم ولكنهم ليسوا دائما ولا غالباً القادة الرسل ، وفى الذى ألقيت إليك الآن بعض ما يفرق بين الصنفين فيقيك الخدعة ويجنبك الشبهة ، حينما يقتضيك الوطن حقه ، وتعمل لإمداده بالقادة والرجال الذين يبنونه ... وُفِّقْتَ وأُيِّدت .

القادة . . الرسل

(٢)

[الله أعلمُ حيث يجعلُ رسالته ، سيصيب الذين أجرموا صَغار عند الله وعذاب شديد بما كانوا يمكرون .] وبعد فهذه معركة الحياة تدور فى السماء وفى الأرض ، فوق السحاب وتحت الماء ، فى الفيافى والمدائن ، ساحقة ماحقة ، مزلزلة مدمرة ، تسمع الصم ، وتشعر الجماد ، بل تفزع نذرها الموتى ، فى أطواء الماضى الغابر . . معلنة أن الحياة نضال . . وهذا الشرق وأهله ، شهود حضور ، ينظرون ويشمرون ، فيعتبرون ويعتزمون مصرين على أن يلتمسوا مكانهم فى الحياة المناضلة جادين غير لاهين ، وأنْ يصلوا حاضرهم بماضيهم ، صامدين غير ناكصين .. وشباب الشرق فى ذلك هو حامل العبء ، المضطلع بتكاليف المجد ، لأنه له المستقبل ، وهو صاحب الغد . . وهذا الشباب أبدا . يسأله المنتصرون مزيدا ، ويرجوه الخائفون تأمينا ، ويفزع إليه المغلوبون ليميل الكفة ، ويقيل العثرة ولقد أنهيت إلى الشباب ، أن فى القرآن مجالا أى مجال لهدى قوى فى تكوين الرجال الذين على أيديهم تتم العظائم كما تمت على أيدى أولئك القادة الرسل ، فأسسوا ديانات ، وحضروا أمما ، وأقاموا دولا — فعلى ضوء المثل التى قدمها التمسنا فرق ما بين القادة المفلحين ، والقادة الفاشلين ، فعرفنا من ذلك أشياء ، وبقيت أشياء ، نتابع الحديث عنها — إن شاء الله — مهتدين بهذا الهدى الكريم . .

ياشباب الشرق :

يتصدر الرجل جماعته ، وينزل منها منزل القائد ، لمعنى فيه واضح من نفوذ تشعر به الجماعة ، وميزة تقدرها ، واعتبارات تنفعل بها وتتأثر لها ، لكن الجماعة — كما قد عرفنا — ظامئة إلى من تصدره وتطيعه وبها حاجة ملحة إلى القادة تلوذ بهم ، وتجتمع حولهم ، فهى حين تتخير وتتأثر ، لا تكون مسددة دائما . ولا موفقة دائما ، بل يسهل خداعها ، ويهون تضليلها ، فقد تخدعها مظاهر خارجية براقة ، تضللها ظواهر سطحية خلابة تنفعل بها وتبنى عليها اختيارها ، فتلقى قيادها ، وتسلم زمامها لقادة ، ليسوا رسلا ولا أصحاب رسالات ، وتخسر بذلك الكثير وما لا يعوض ، لأن اليوم بل اللحظة فى حياة الأمة ، أعوام وأجيال فى حياة الأفراد ، والخطأ من الجماعة ، خطيرا لأثر ، عنيف الضرر ، لا يهون تداركه ولا يسهل تلافيه ، بل يدفع حياة الطبقات ، ويوجه التاريخ .. من أجل ذلك كان التفريق بين القادة الجياد ، والقادة الزائفين أمر عظيما ، وعملا كبيراً... ومن أكبر الفروق بين هؤلاء وهؤلاء مصدر نفوذ القادة فى قومهم ، وسبب تأثيرهم على جماعتهم ، فإن الجماعة بسذاجتها واندفاعها ومستوى عقلها الجماعى ، تكون مَظِـنّة الخديعة ، وموضع التغرير فى فهم هذا المصدر وتقديره والتريث فى إدراكه فالقادة الرسل — ياشباب — إنما يعتمدون على نفوذ شخصى داخلى ، يصدر عن مزايا نفسية حقيقية ، على حين لا يعتمد الآخرون إلا على نفوذ سطحى خارجى ، يصدر عن مزايا شكلية ظاهرية كاذبة ، صورية مزورة. القادة الرسل — يا قوم — فيهم جاذبية نفسية قوية

تستهوى نفوس من حولهم ، وتستولى على أرواحهم وقلوبهم . للقادة الرسل نفوذ روحى ، تشعه شخصياتهم القوية على قومهم ، فيملك عليهم عواطفهم ويأسر ألبابهم ، ويسرى فى حياة الأمة ، لا فى أيام حياة أولئك القادة ولا لأجيال بعدهم فحسب ، بل يساير الزمن ، ويثير التاريخ أجيالا وأجيالا ويشمل طبقات وطبقات ، متجددا باقيا فعالا موحيا ، فتظل شخصياتهم الفاتنة تتنشقها الناس ، من وراء آلاف السنين ، ولا تزال الأرواح تنتشى بعبقريتها ، فى رضا وإعجاب ، لاتقوى عليهما سيطرة الموت ، ولاجبروت الفناء ... لأن مصدرها أشياء قد طبعت الحياة ، ولونت وجود الجماعة ... جاذبية القادة الرسل ، لا تنبعث من مغريات خارجية ، كمركز سام ، أو جاه عريض ، أو سلطة نافذة أو لقب كبير ، بل هى بعيدة عن ذلك كله محرومة من ذلك كله ، يعوزها المركز ، وتناوئ أصحاب المراكز، وتحيا مع المساكين . ينقصها الجاه ، بل تتحدى ذوى الجاه ، ويلوذ بها الضعفاء ، ليس لها إلى السلطة سبيل ، بل تهدد وارثيها ، وتزعزع غاصبيها ... مالها لقب ، إلا ماينبزها به الساخرون الهازئون ، من سفاهة ، وضلالة وجنون ، وسحر ، وافتراء ، وأشباه ذلك من نعوت ..

نفوذ القادة الرسل لا يقوم على مغريات مادية ، من نفع يملكونه فيوزعونه ، أو ضر يستطيعونه فيرهبون به ، فليست إليهم خزائن الأرض ، ولا فى يدهم الأرزاق والنعم ، ولا ألقيت إليهم الكنوز ، ولا قام حولهم الأحراس والأعوان ، ولا أحاطهم الأجناد ، وجللهم الإرهاب ... بل هم المحرومون المضطهدون الفقراء البائسون ، هدف البطش ، وغرض الفتك ...

وعلى العكس من ذلك كله تماما ، تعتمد جاذبية القادة الزائلين . على العكس من ذلك كله تماما ، يقوم نفوذ القادة الفانين .. لا تنبعث جاذبيتهم إلا من مغريات خارجية فهو المركز العالى حلّوه أو أُحلوا فيه ، أوهى السلطة النافذة منحوها أو اغتصبوها ... هو اللقب الرنان الموهم قد آزرته كسى براقة مزركشة ، وزانته أوسمة خلابة متألقة ، تزيغ العين ، وتعشى البصيرة ، هى جلبة الأعوان وضجيج الدعاة وتهريج الغلاة ... لا يقوم نفوذ القادة الواهمين ، إلا على المنع والإعطاء ، والحرمان والإرهاب ، والمساومة والإغراء والنفع والضر ، فإليهم الخزائن والمقاليد ، والحطام والأعراض ، وويل للناس من ضعف الروح وسطوة المادة ...

لقد يبدو نفوذ أمثال هؤلاء قويا بل عنيفا ، وقد تتراءى جاذبيتهم خاطفة أو لافتة ... لكنه نفوذ قصير العمر سريع الزوال ، وجاذبية لا تخطف إلا أبصار الأغرار ولا تستهوى إلا قلوب البسطاء .

عرض القرآن لهذا المهم من حياة الجماعة ، ومقام قادتها ، حين تحدث عن الرسل فى أممهم منذ أقدم الأزمنة وأبعد العصور، عرض لهذا المهم فأعلن تجريد القادة الرسل من تلك المغريات جميعا ، وواجه الأمم بذلك جهرة وأمر الرسل أن يقولوا ذلك ويعلنوه ، وصارحهم بأن الله القادر على أن يجعل لهم أكثر مما يطمع فيه قومهم لا يفعل ذلك ، ولا يختاره لهؤلاء المنذرين .. وهذا هو نوح ، الأب الثانى للبشرية يعلن ذلك من أغوار الماضى ، ويسجله له القرآن فى قوله : [ولا أقولُ لكم عندى خزائنُ الله ، ولا أعلمُ الغَيْبَ ، ولا أقول لكم إنى مَلَكٌ ولا أقولُ للذين

تزدري أعينكم لن يؤتيهم الله خيراً ، الله أعلم بما في أنفسهم]
وكذلك كان شأن رسول القرآن عليه السلام ، لا كنز يلقى إليه ولا له جنة ولا تنصره الملائكة ، ويعجب قومه من أن يسعى لكسب قوته كما يحكى القرآن ذلك من قول قومه ورده عليهم : [وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ، لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً ، أو يلقى إليه كنز ، أو تكون له جنة يأكل منها ، وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلاً مسحورا ، انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا] ويعلن أن لو شاء لجعل له خيراً من ذلك كله ولكن لا .. [تبارك الذي إن شاء جعل لك خيراً من ذلك جنات تجري من تحتها الأنهار ، ويجعل لك قصورا .] وحينما خشي عليه السلام أثر تعليهم في إيمانهم ، واجهه القرآن بأن ذلك مما لا يقتضيه مركز النذير ولا يريده الله وقال له : [فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك أن يقولوا لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك إنما أنت نذير والله على كل شيء وكيل .]

هكذا جهر القرآن على مسامعهم ، بإبعاد الرسل عن تلك المغريات ، وردهم عن أن يقدروا أثرها ، ولكن ظلت الجماعات تقع في هذا الخطأ ، وتستهويها السطحيات الظاهرة ، فيزعم الزاعمون حيناً أن ضعف القادة الرسل الجسمي أو المظهري مثلا يحول دون تحقيق الغايات الكبرى التي يحاولونها . . أو يظن الظانون أن الحكمة في أن يأتي بهذه الرسالات ، إلى ناس تؤيدهم رياسة وتقدم في الدنيا ، وتسندهم القوة من مال وفير أو جاه عريض ،

وما إلى ذلك ، أو يتطاول المتطاولون من ذوى السلطان إلى الاغترار بجاههم ومظهرهم، فيحاولون انتزاع إعجاب الجماعات بهم، وصرفهم عن القادة الرسل ، ببيان فرق ما بينهم وبين الرسل من مظاهر خلابة ، ملكوها وحرم منها المرسلون ، فتصدى القرآن لرد ذلك كله، ووقى الأمم أخطاره، رد زعم الزاعمين، عن ضعف الرسل ، وأنهم ليسوا أعزة على قومهم فى مثل قوله عن قوم شعيب عليه السلام: [قالوا يا شعيب ما نَفْقَهُ كثيراً مما تقولُ ، وإنَّا لنَرَاكَ فينا ضعيفاً ولولا رَهْطُكَ لرَجَمْنَاكَ ، وما أنت علينا بعزيز] إذ أعلن غلبة هذا الضعيف حين يقول لقومه : [ويا قوم اعملوا على مكانَتِكم إنى عامل سوف تعلمونَ مَنْ يأتيه عذابٌ يُخْزيه ، ومَنْ هو كاذبٌ ، وارتقبوا إنى معكم رقيبٌ] وكذلك كذب القرآن ظن الظانين أن الحكمة فى اصطفاء القادة الرسل من عظماء الظواهر والمظاهر ، فيما حدث عن العرب ومحمد عليه السلام بقوله : [وقالوا لولا نُزِّلَ هذا القرآنُ على رجل من القريتين عظيم] ورد عليهم بأنهم ليسوا الذين يقسمون رحمة الله ، ولا من يعرفون أين الخير : [أهم يَقْسِمُون رحمةَ ربِّك نحن قَسَمنَا بينهم معيشَتَهُم فى الحياة الدنيا ، ورفعنا بعضهم فوق بعض درجاتٍ ليتخذَ بعضهم بعضاً سُخريًّا ورحمةُ ربك خيرٌ مما يجمعون] وفى هذا الرد الإلهى من نظام المجتمع واتساقه ، مايطول عنده الوقوف ، وحسبك هنا ما يشير إليه ، من رحمة الله التى يقسمها القسمة النافعة ، ويهب الرجال منها ماهو فى حساب البطولة ، ووزن العظمة خير مما يجمعون .

فى سبيل وقاية الجماعات من شر الغرور بالمظاهر الخارجية ولو كساها الذهب وناصرتها القوة الهائلة ، وأيدها السلطان الجبار ... فى هذا السبيل عرض لنا القرآن الكريم منظراً مصرياً فى المباهاة الساذجة الغريرة من فرعون الجبار ، لموسى وهو ربيبه إذ يقول : [ونادى فرعون فى قومه ، قال يا قوم أليس لى مُلك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى ، أفلا تبصرون ، أم أنا خير من هذا الذى هو مهين ، ولا يكاد يبين فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين] وكذلك استخف فرعون قومه بأساور الذهب وواسع الملك ، وسلطة الحكم ، وخدعهم فتبعوه ، وانتهى بهم إلى ضياع ودمار : [فأستخف قومه فأطاعوه ، إنهم كانوا قوماً فاسقين ، فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم جميعا ، فجعلناهم سلفاً ومثلا للآخرين] لا جعل الله مصر بعد هذا السلف والمثل ، تستخف بالظواهر والخوادع ولا يغشها فى وزن الرجال بريق الذهب ولمعان القصب كما أنتقص فرعون موسى بنقص الأساور وبساطة الظواهر ..

يا شرق ... بنفسى مصالحك ومرافقك ، ومواطن حاجتك إلى الإصلاح الناهض والتجديد البانى ، إذا توكل حينا ، إلى أشخاص. كل نفوذهم فيها أنهم ذوو أسنان ، أو حملة ألقاب . أو أصحاب مظهر خلاب . وكل شخصيتهم أن إليهم السلطة ، وبيدهم الخزانة .. وكل إيمانهم أن هذه الأعمال ميدان سيادتهم ، ومجال أبهتهم ، أولئك يفكرون — إن حاولوا التفكير — فلا يهتدون ، ويتخيرون فيخطئون ، ويقولون ولا يفعلون ، فجهادهم ضجيج وطنين ، وإصلاحهم كلام وإعلان ... تراهم حين يواتيهم السلطان

وقد قادوا مرافق الحياة ، وتصدروا حركات الإصلاح ، فتحسبهم ذوى نفائس، وأصحاب شخصيته فإذا ما غادروا مناصبهم ، وأفلتت منهم مراكزهم رأيتهم لقى هيناً ، وظلا زائلا . قد خرجوا من الحياة ، وهانوا فى الوجود ، ونسوا كل دعوة ، وجهلوا كل إصلاح ، كأنهم ليسوا من البلاد ، ولا لهم بها شأن ... أشباح روحها السلطة ، وظلال جسومها المراكز ... من أجل ذلك تسمع يا شرق ، عن حديث النهوض والإصلاح ، حتى تتصدع ، ولا ترى على طول الزمن أثراً ... جعجعة ولا طحن وقول ولا فعل ... قد عجز المتصدرون فيك ، حتى عن بث روح التقليد والمحاكاة فى أهلك ، ليسلكوا طرقا معبدة سلكتها الأمم قبلهم . ويسيروا فى سبل ممهدة ، تقدمت فيها الشعوب أمامهم .

يا شباب ..

أخلق قادتك من همتك ، وكونهم بإيمانك ، وامنحهم حيويتك ، واتق فيهم الوهم والانخداع ...

ليكونوا كالقادة الرسل ، مؤمنين يبثون الإيمان فى القلوب ، لا قوالين يستهوون برنين الألفاظ ...

ليكونوا كالقادة الرسل ، يهيجون فى قلوب جنودهم كرام المشاعر ، لا وضيع الأهواء والمنافع ..

ليكونوا كالقادة والرسل ذوى نفوذ روحى قوى ، لا سلطان خارجى مادى ...

ليكونوا كالقادة الرسل ، أصحاب شخصية نفسية ، لا أصحاب مظاهر كذابة خارجية ..

أولئك هم الذين ينهضون وطنك ويستردون مجدك ، ويبنون غدك ..

القادة . الرسل

(٣)

[هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق] . تحدثت إليكم ، غير مرة عن حاجة الشرق الماسة ، إلى قادة ورجال ، لن يمده بهم إلا الشباب . وجعلت ، لذلك ، أجنب الشباب مواطن الريب والزيف ، فى من يتصدرون لهذه القيادة ، اتقاء لخطأ الجماعات فى الاختيار ، واندفاعها فى الاستسلام ، مهتديا فى ذلك كله بهدى القرآن متخذا رسل الله الكرام ، مثلا سامية للقادة الذين وجهوا حياة أممهم وغيروا وجه تاريخها فهدى ذلك مستمعى الكرام إلى ألوان من الفروق بين القادة الصادقين أصحاب الرسالات والقادة الخادعين أصحاب الدعاوات ، حيث بين القرآن الكريم فى الرسل الأبرار صفة الأولين وحذرهم صفات الآخرين . إلا أن مجال الخداع فى هذه الناحية فسيح رهيب ، وخطره بعيد شنيع ، وأخوف ما أخاف أن يشتبه تزييف المزيفين بحق المحققين ، فيحسب القول الخلاب ، تنقاد فيه الألفاظ وتطوع به العبارات ، ترجمان إيمان صادق ، أو يظن الاندفاع فى سبيل الأهواء والمآرب كاندفاع الذين آمنوا إذا ما أثيرت مشاعرهم الشريفة .. أو يخال السلطان الخارجى المنظم على الاتباع والأعوان ، نفوذا روحيا جذابا ، أو تتوهم المظاهر الخارجية الساحرة لأعين الناس ، لونا من الشخصية النفسية الفعالة .. فخشية هذا الانخداع ، وخوفا من الالتباس الموهم ، أتابع القول فى ميزات القادة الرسل محاولا هذه المرة أن أضع

بين يدى الشرق وأهـــله فروقا تقى الخداع ، ولا تمـكن من التمويه بل يصعب فيها التضليل ، لئلا نخسر الوقت الطويل فى التجارب متابعين من لا غناء فيهم ، مسايرين من لا رجاء عندهم إلى أن تتـكشف حقائقهم أخيرا وقد ضاع الوقت والجهد ، حتى يحفزنا الزمن مستعجلا بل طائراً ، فالوقت لا ينتظرنا والواقع لا يعذرنا والدقائق فى حياة الأمم غالية نفيسة ، فـكيف بالشهور والأعوام ! !

أيها المناضلون فى الحياة . .

إنما القادة أصحاب الرسالات ، قوم عمر الإيمان أفئدتهم ، وغمر اليقين أرواحهم ، فهم يتمثلون أهدافهم التى يسعون إليها ، مجسمة محققة لا يساورهم فى ذلك شك ، ولا تخالج أنفسهم ريبة ، وهم لهذا يقدمون نحوها فى ثقة المشاهد المشارف ، وتأكد المدانى للظفر الملامس للنصر ، لا يثنى عزمهم عما يطلبون أى شىء ؛ لأنه دانٍ منهم وعلى منال أيديهم فى رأى العين ، واطمئنان القلب ؛ ملـكهم اليقين النفسى وفاض على كل ما حولهم من الدنيا نوراً يمحو كل ظلام ، وإقداما يبدد أى عقبة ، فـكل صعب عند الناس هو عندهم هين ، وكل عسير على الناس هو عليهم يسير فتراهم يحملون على الصعاب والعقبات فى استهانة وإقدام قد نسوا كل شىء واستخـفُّوا بكل شىء ليس لهم فسحة من الوقت للتفـكير فى خطر والاشتغال بتقدير ضرر ، حتى ليقول دارسو نفسيات أولئك القادة الرسل إنهم فى أقدامهم يفقدون غريزة حفظ الذات ، والمحافظة على النفس ويتغلبون على المعروف من شأن الطبيعة البشرية فى الاتجاه إلى حماية

وجودها ، والولع بصيانة كيانها . . . ينسون ذلك نسيانا حتى ليلقى الواحد منهم الأمة المخالفة والجيش المعبأ والجماعات العصيّة الأبية ، وهو فرد وحيد ، فيرى نفسه عدل ذلك كله وكفء ذلك كله ، بل يرى نفسه أقدر من ذلك كله وأظفر ، ما يشك طرفة عين فى أن النصر له ، والظفر معقود بلوائه ، فهو يغامر فى جرأة مدهشة مستهينا بكل شيء غير معنى بما يواجه وجـــوده من خطر ؛ أولئك هم القادة الرسل . أما هؤلاء الآخرون الذين اغتصبوا مراكز القادة ، فإنك لتراهم حين يجد الجد قد شغلوا بأنفسهم ولم يفكروا إلا فى الاحتياط لحياتهم ، يروعهم يسير الخطر بل يجسم خوفهم فتنحل الأعصاب ، وتنخلع الألباب وما هو إلا اللواذ بالجدران ، والاحتماء بالأعوان ، ثم الولولة مكبرين ما لقوا ، مهولين فيما عانوا ، ممتنين بما بذلوا ... ذلك الفرق — يا أبناء الشرق — بين صنفى القادة فى إقدامهم ونسيانهم أنفسهم وتدبيرهم لسلامتهم فرق لا يسهل فيه التشبيه والتخييل ، ولا يخفى على ناظر ومقدر ، إذا ما اشتبه غيره من الفروق واستطاع الزائفون أن يوهموا به ويهوشوا ، لأن التهويش والتشبيه هنا يتطلب خوض المآزق ومداخلة المخاطر وذلك ما لا تسعفهم عليه أنفسهم ، ولا تعينهم عليه قلوبهم ، وآخر ما عندهم جولة خاطفة فاترة ، ثم ينهارون ، إذ مثل هذا لن يخدع . .

أيها الشاعرون بأعباء الحياة :

القادة الرسل ، أصحاب النفوس العظيمة تبدو لهم غاياتهم محققة مهما يخالفهم فيها الناس ، ويتمشقونها مهما ينكرها الناس ، فهم يندفعون نحوها ، اندفاع القذيفة المنيفة إلى هدفها ، لا يشغلهم عنها أجر يرجونه

ولا يلهيهم جزاء ينتظرونه ، ولا يصرفهم ربح يتوقعونه ، كل همهم أن يحققوا تلك الغايات أو يهلكوا دونها ، فأجرهم هو الظفر بها ، أو أن يكونوا ضحايا من أجلها ؛ أما القادة المحترفون فليس لهم ذلك الإيمان بغاياتهم ولا هم متعشقوها المتفانون ، وأيسر الأشياء وأحقرها يشغلهم عنها وينسيهم إياها ، فهم فى الطريق يشغلهم ماشئت من تعديل الدرجات ، وتلهيهم تسوية المعاشات ، ويصرفهم تقدير المكافآت ، ولهم فى أنفسهم وآلهم وأعوانهم ما يستهلك الوقت والجهد ، ويتأثر بالنشاط والتدبير ، وعلى الجماعة العفاء ، . . . أليس حقا ، أن يؤجروا ويرزقوا ، ويثابوا ويكافئوا على ما عملوا وقدموا . . . فهم أجراء على هذه الأعمال ، وعمال لتحقيق هذه الآمال ، ليسوا مؤمنين بما يطلبون ، بل ليسوا هواة يجدون لذتهم فيما يباشرون وغير هذا كله مايشغلهم ويعنيهم ، وذلك فرق — يا أبناء الشرق — بين صنفى القادة فى تجردهم وتساميهم أو ارتزاقهم وتكسبهم ، فرق لا يسهل أيضاً فيه التزييف والتضليل ، إذا ما اشتبه غيره من فروق ، لأن نفوس هؤلاء الضعاف لا تستطيع صبراً على المادة ، ولا تقوى على الانصراف عن المغنم ، إذا هان عليها ادعاء الإيمان وتحبير القول الخادع للأعوان . .

لمثل هـــذا من مشاكل حياة الرجال يعرض القرآن ، حين يحدثكم عن قادته الرسل ، ذلك الحديث المتلو فيكم صباح مساء فتسمعونه حين يأمر الرسل بتبليغ الرسالات ، والجد فى ذلك ، يهيئهم لهذه الفدائية ، ونسيان النفس المطلوب منهم ، فيعلمهم أنه يعصمهم من الناس ، ليلقوهم غير آبهين ولا عابئين ، وذلك قوله : [يأيها الرسولُ بلغْ ما أنزِلَ إليكَ من ربك ،

وإنْ لم تفعلْ فما بلّغتَ رسالتَهوالله يعصمُكَ من الناس ، إن الله لا يَهدِي القومَ الكافرين] ، يقول له : والله يضمن لك العصمة من أعدائك فما عذرك في مراقبتهم [1] ! ! ولا يقولَنَّ متواكل ، هذه ميزة للرسل لا تتهيأ لغيرهم فكيف يطالب الناس بمثل عملهم ؟ لا يقولن ذلك أحد ، فإن القرآن يعلن حماية المؤمنين بأقوى من هذا عبارة إذ يجعل نصرهم حما على الله — حقا لا عدة مجردة فهو يقول : [وكان حقاً علينا نصرُ المؤمنين] فمن آمن ووثق فأولئك هم الذين يجدون في عدة الله وفيما قدره لهم من حق ، أقوى العدد ، وأمنع الحصون ، فيقدمون فدائيين ناسين أشخاصهم . . وكذلك مضى القادة الرسل في الحياة كما وصفهم القرآن بقوله : [يبلغون رسالاتِ اللهِ ويخشوْنَه ، ولا يخشَوْنَ أحداً إلاّ اللهَ ، وكفى بالله حسيبا] نفى عنهم أن يخشوا أحداً غير الله ، ولو أنهم بشر مثلكم ، لهم غرائزكم وفطركم ، ومنها الخوف ، وقد قال عن موسى عليه السلام : [فأوجسَ في نفسِه خيفةً موسى] . لكنهم إذا ما خافوا بالفطرة ، لن تخشى نفوسهم المروضة القوية شيئاً إذ هم قد أعلوا غرائزهم ، وهذبت نفوسهم فإذا ما كان الخوف الغريزى فملا منعكسا ، لاتبرأ منه الطبيعة ، فإن الخشية أمر تقتضيه المعرفة ويبعثه شعور الخاشى بعظمة ما يخشاه وإحساسه بضعفه هو [2] ، وذلك مالا سبيل له على النفوس القوية ، أو الشخصيات العظيمة وهو ما نفاه عن الرسل . . ولهذا الفرق أثره في الحسِّ اللغوى الفنى الذى يسود النظم القرآنى ، افتراه

---

(١) الزمخشرى — كشاف ١ : ٤٢٦

(٢) كليات أبى البقاء — مادة « الخوف »

لايكتفى فى بث الطمأنينة بنفى الخوف وحده بل ينفى الخوف والخشية معاً إذ يقول لموسى : [فاضرب لهم طريقاً فى البحر يَبَساً لا تخاف دركاً ولا تخشى] وبهذا يقدم دون تأثر بخوف انعكاسى ولا خشية ناجمة عن معرفة الأشياء وتقديرها أو وزن صعوبتها ، ومثل هذا مما يحتاج إليه من يؤمر بمثل ما أمر به ، من ضرب طريق يبس فى البحر...

أيتها القلوب المؤمنة :

هؤلاء القادة الرسل الذين لا يخشون أحداً إلا الله . هم الذين صح أن يوجه القرآن الخطاب إلى أحدهم آمراً إياه بجهاد الجموع والإغلاظ للكثرات فيقول لرسول القرآن — عليه السلام — أكثر من مرة ، بلفظ واحد [يأيها النبى جاهد الكفار والمنافقين ، واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير] (توبة ٧٣ ، وتحريم ٩) . فهل ترون هذا الأمر بجهاد الجمع والإغلاظ عليهم يوجه لرجل قد احتفظ بأنانيته أو لا يزال يفكر فى حفظ ذاته أوهو بعد يشعر أنه واحد وأعداؤه كثرة قوية ؟ لاولا .. ثم ليس ذلك مافى القرآن فحسب ، بل إنه قد صارح الرسول عليه السلام مكلفاً إياه بالقتال وحده فريداً ، إذ قال له : [فقاتلْ فى سبيل الله ، لا تكلفُ إلاّ نفسَك وحرِّضْ المؤمنين] . قال ذلك فى مقام تحدث فيه عن قعود الناس عن القتال وقول ناس مؤمنين [ربنا لم كتَبتَ علينا القتالَ ، لولا أخرْتَنا إلى أجل قريب] وعند إظهارهم له الطاعة وأضمارهم خلافها رأى فى مقام يدعو إلى التوقف أو التردد أو حساب العواقب ، لكن كان الأمر كما سمعتم حاسما قاطعاً ، فقاتل فى سبيل الله ، لا تكلف إلا نفسك ، أمراً

بأن يباشر القتال بنفسه ، ومن نكل عنه فلا عليه منه [1] .. أمراً بأن يقاتل فى سبيل الله إن أفردوه ، وتركوه وحيدا ، لا يكلف غير نفسه وحدها أن يقدمها إلى الجهاد [2] ، ولقد أكبر الذين سمعوا هذا الأمر تلك الروح الجريئة ، وفهموا منه معانى التفوق والمخاطرة ، إذ سألوا عن الرجل يلقى المائة من العدو فيقاتل ، أفيكون ممن قال الله فيه : [ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة] . . فكان الجواب عن هذا السؤال ممن فهموا سر هذا الأمر أن الله قد قال لنبيه : « فقاتل فى سبيل الله لا تكلف إلا نفسك [3] . »

وهكذا تقدم القرآن منذ طوال المئات من السنين يعامل رسله القادة ، على أساس نفسى ، هو نسيانهم غريزة المحافظة على الذات فى سبيل إبلاغ رسالاتهم وأداء واجبهم ..

يقول الباحثون فى أصول فهم القرآن ، أن خطاب الرسول — عليه السلام — خطاب لأمته ، فأحبب إلى ، أن يشعر كل فرد من أمة القرآن بأن هذا الخطاب موجه إليه كل آونة يصيح فى أذنه [جاهد ... واغلظ] [قاتل فى سبيل الله لا تكلف إلا نفسك] . إذن لاختطت تلك الأمة طريقها فى معترك الحياة ولكانت خير أمة أخرجت للناس ، ما دام منطق الحياة ، هو مالا نزال نرى ونسمع من تحكيم القوة ..

هذا صنيع القرآن بشأن الفرق الأول ، بين صنفى القادة ، وأما نسيان

---

(١) تفسير المنار ٥ : ٣٠٥

(٢) الزمخشرى كشاف ١ : ٣٧٧

(٣) تفسير المنار ٥ : ٣٠٥ (الموضع السابق)

هؤلاء القادة الرسل للأجر ، فقد جاء كم منه قبل الآن النبأ اليقين ، وسمعتم تلك النفحة السماوية المرددة على ألسنتهم جميعاً إذ يقول كل لقومه [وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين] [1] وكل هم الرسول منهم ما قاله رسول القرآن عليه وعليهم السلام ، أن يتم هذا الأمر أو يهلك دونه ، فحسبهم من الأجر أن يكونوا هم ضحايا عملهم وقربان رسالاتهم .

ياشرق ... لأنت أبو الأبطال ، وموئل الرجال ، عرفت من أبنائك من آثروا البؤس طول حياتهم ، وواجهوا الموت ، سافراً حاطما ، فما نكصوا ولا ريعوا ، أولئك هم القادة الأبطال ، القادة الرسل . لكنّ بك اليوم أشخاصاً يمنون عليك ، أن جالوا بين الموائد ، وجاسوا خلال الحفلات ، وشربوا الأنخاب ، يعتدون ذلك عليك جهاداً ، ويبتغون به أمجاداً ، ويخدرون به أعصابا ، وينتزعون ألقابا .. أولئك ناس تلتوى الأمور عليهم ، حين يتضح الحق ، ويستنير الطريق ، فيعيون حتى عن أن يسلكوا سبل الأمم قبلهم ويقفوا على آثار السابقين أمامهم ، وبهذا يفشلون ، فتراهم لا يلقون التبعة إلا على غيرهم ، ويلومون سواهم وتسألهم أين أنتم ومواقف القادة ؟ أين قتالكم وحدكم ، لا تكلفون إلا أنفسكم .؟ . فلا تسمع إلا تضليلا .

ياشباب ... لتكفين فى إيقاظك وتذكيرك ، تلك القوارع الفاجعة ، وإنك لتشهد بعينيك عجلة القدر ، تدور مسرعة رهيبة ، ومصاير الأمم تقرر فى لحظات ، فدبر لغدك واختر لنفسك وجاهد لحياتك .

---

(١) راجع الحلقة المعنونة « رسل ورسالات » رقم (١) من هذه السلسلة

عزمات القادة

[ذو العرش المجيد ، فعّال لما يريد] أرأيتكم هذا التحدث عن القادة والرجال لئن أكثر منه فما أمل ، وأرجو ألا أمل . إذ ما رأيت كاليوم ، وما يجرى فيه من أحداث ، أيسرها يغرى بطلب الحق الضائع واسترداد المجد الغابر ، وبيع النفس فى سبيل عظمة هذا الشرق ، والرجال هم فى هذا مادة البطولة ، وعدة الكرامة والقادة الراسخون ، هم عمد النصر المشيد ، ودعامة المجد المبتغى ، وأسس المستقبل الكريم ...

لذا تحدثت إليكم أكثر من مرة ، عن فرق ما بين القادة الصادقين ، وغيرهم من الزائفين ، وما يهدى إليه القرآن من مميزات هؤلاء ، ونقائص أولئك ، وأحبب إلى أن أتحدث أيضا عن القادة والرجال المرجّين فى الشرق الطامح ، فأكشف عن عناصر هذه القوة الذاتية الممتازة فيهم ، وأبدأ من ذلك بأهم تلك العناصر وأجلها أثرا ، إذ أتحدث عن عزمات القادة وإراداتهم ...

أيها الشاعرون بحقهم فى الحياة ... إن هذه الدنيا قوة ومادة ، أو إن شئتم جسم وروح ، والمادة هامدة ، لا عمل لها دون قوة تسيرها وتسخرها ولو كان العالم مادة فحسب ، لكان خربة مكتظة بالأنقاض ، كما أنه لو كان قوة لا تسعفها مادة مستجيبة ، لبدلت الأرض غير الأرض والسموات ، وكذلك الإنسان هو فى هذا الكون عالم صغير ، يأتلف من مادة وقوة ، مادته الجسم ، وقوته هى القوة النفسية ، التى تتجلى فى الإصرار المصمم على

الفعل أو الترك ، ذلك الإصرار الذى يخرج إلى حيز الوجود أعمالا . كما قد يكون إصرارا على الأقناع ، فيحول نهائيا دون وقوع أشياء بعينها ...
ولوكان الإنسان مادة فحسب ، للحق بالجماد والموات وصار موجوداً لاغناء فيه ولا كفاء ، ولو كان قوة لا غير ، لكان من غير أهل هذه الأرض ، فوجوده فى هذه الدنيا قد أنتظم على هذا الأساس : كيان مادى وجسمى ، يهيىء لقوة الإرادة أن تفعل وتترك ، فإن كانت إرادة واقمة فاعلة ، سخرت معارف الإنسان وتجاربه ، وخبرته وسعة حيلته ، فى سبيل إتمام أعمال قيمة وإن كانت إرادة معتقلة مانعة ، منعت من أعمال خطرة ضارة ، وهكذا يرتد كل ما فى الدنيا من فعل وترك إلى الإرادة ، ولعل من أصدق ما يمثل أثر الإرادة ، وقوة العزمة فى هذا الكون ، قول لبعض المتصوفة : « إن لله عبادا إذا أرادو أراد الله » أى أنهم إذا صدق منهم العزم فتوكلوا على الله ، واتتهم المعونات ، وزالت الموانع واستجابت الدوافع ، فكانت إرادة الله محققه لإرادتهم منجزة لرغائبهم .

أيها الشاعرون بحقهم فى الحياة : .

إذا ما اجتمعت الكثرة من الناس ، لغرض واحد ، وجدت الجماعة النفسية ، ولكل فردمنها إرادته التى لها من القوة ماأعدله صاحبها ، بوراثته وتربيته ، لكنك عند هذا التجمع تجد كل فرد من الجماعة قد فقد إرادته والتف الأفراد جميعا حول فرد منهم يكون صاحب إرادة قوية ، وعلى هذا تصغى الجموع دائما ، إلى قول ذى إرادة نفاذة ، وعزمة غلابة ، يعرف كيف يتسلط عليها .. ومن هنا يكون لعزمات القادة ، أثرها فى تسيير حياةقومهم .

فضاؤهم يدفع الجماعة كلها ، ويغريهم بجلائل الأعمال ، كما أن الفترة اليسيرة في إرادة القائد قد توهن العزائم فتنثلم السيوف ، ويبرد البارود ، وتتبخر القوة المعنوية .. وهكذا توجت هام الحوادث الكبرى في حياة الإنسانية دائما بأسماء رجال ذوى إرادات ثابتة ، كان لهم الأثر الأعظم ، في الجموع التي عملت ، لتحقيق هذه الأغراض العظمى .. وليس تاريخ الإنسانية ، إلا السجل الذى يحتفظ بهاتيك الأسماء وأبناء تلك العزمات المواضى ، على أختلاف الأعصر والأقطار ..

أيها الشاعرون بحقهم في الحياة . . . إنما العظمة في عزمات القادة من أنهم يطلبون ممنعا ، بعيد المنال لا يتحقق إلا بعد طول جهاد ، ولا يجاز إليه إلا على جسر من النضال والكفاح ، إذ لو كان مطلبهم قريباً لسهل الاندفاع نحوه ، على أثر اعتزامه ، قبل أن تبدر بوادر ، أو تلوح عوائق أو تتغير ظروف ، فيفتر العزم أو يتخلخل التصميم — أما عند بعد المطلب ، وطول الوقت ، وشدة المعاناة ، فإن العزيمة عرضة لكل هذه الطوارىء المثبطة ، وإذ ذاك يكون الاحتفاظ بمضائها ، والثبات على قوة التأهب ، وشدة الاندفاع مما لا يقوى عليه إلا ذوو العزمات الكبار ، والإرادات الفذه الماضية . . . لقد تتغير بمر الوقت الظروف والأصول الخارجية تغيراً يمس التصميم . . . ولقد يبدو فرق ما بين المطلب في ذهن الطالب مقصورا ، وبينه في الخارج واقعاً ملموساً ، فيكون الفرق من العظم بحيث يخزل العزم ويهز الإرادة . . . لكن ذلك كله وغيره مما يشبهه ، لا ينال من عزمات القادة ، ولا يثنى همم العظماء ، بل تراهم يتغلبون على ما يواجههم من

طوارىء وما يصيبهم من مباغتات ، لا يردعهم من ذلك شيء ، ولا يؤثر على ثباتهم مهما يطل وقت جهادهم ، فى سبيل غاياتهم ، ومهما تكن المفاجآت والمباغتات ، وهذا هو موضع العظمة ، وناصية التفوق التى تثير الإعجاب ، وتسترعى انتباه التاريخ ، فلا يبخل على الواحد منهم ، بالمكانة البارزة ، والاعتراف الصادق بالجميل ، والذكر الخالد على مر الأدهار ، ومن هذه الناحية يكونون قدى ومثلا ، تحتذى وتقلد ، وتبث فى النفوس قوة وأملا .

من هدى القرآن ، ما يتحدث إليكم عن هذه العزمات وآثارها ، سواء فى ذلك حديثه عن غير الرسل وحديثه فيما يتناوله أمر القادة الرسل ، الذين يكرر عليكم فى تأكيد ، أنهم بشر مثلكم ، وأن فيهم لكم الأسوة الحسنة . . . وهم أولئك الذين أسسوا ما أسسوا من ديانات ، وخلقوا ما خلقوا من أمم وجماعات ونظم . . . فمن حديث القرآن عن العزمات الفعالة مثل قوله : [إن ربك فعّال لما يريد] . . [ذو العرش المجيد . فعّال لما يريد] . . [ولكنّ اللهَ يفعلُ ما يريد] . . [إن الله يحكمُ ما يريد] . وكل ذلك فى صور مختلفة من التأكيد والتقوية ، كصيغة المبالغة فى فعّال ، إلى التصدير بحرف التوكيد ، وما إلى ذلك . ولا يَهِمَنّ أحد ، أن هذا الحديث عن الإله تعالى شأنه وكماله ، ليس مما نحن بسبيله من عزمات القادة وإرادات البشر : كلا ، فلقد قرر القدامى أنفسهم ، ما أشرت إليه قبل الآن ، من أن كمال العبد ، وسعادته فى التخلق بأخلاق الله تعالى ، والتحلى بمعانى صفاته ، وأسمائه بقدر ما يتصور فى حقه ، وإن من حظوظ

المقربين أن يستعظموا ما ينكشف لهم من صفات الجلال على وجه يشوقهم إلى الاتصاف بما يمكنهم من تلك الصفات ولن يتصور أن يمتلىء القلب باستعظام صفة ، إلا ويتبعه شوق إلى تلك الصفة ، وعشق لذلك الجلال والجمال[1] . . . فحظ العبد المنتفع بهدى القرآن ، أن يكون فعالا لما يريد ، وأن يكون نفاذا فى ذلك بقدر ما يتصور فى حقه ، وبقدر ما تقتضيه إياه الحياة الجادة . . . ثم هذا القرآن هو الذى يبين أولى العزم أولى الجد والثبات والصبر ، إذ يقول لرسول القرآن — عليه السلام : [فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل] . فمِنْ هنا للبيان ، وهذا بشهادة الحقائق النفسية ، أرجح ما يصل إليه من معناها فى هذا الموضع[2] لأن الرسل هم أجدر الخلق بهذه العزمات ، وهم أقدر الناس عليها — كانوا أحق بها وأهلها .

والقرآن يعرض أكثر من مرة لأن يعلم الناس ما به عزم الأمور وإمضاؤها ، فيذكر فى ذلك الصبر والاتقاء ، وغفران الإساءة ، بضبط النفس ، وكل أولئك ظواهر العزمات الجليلة ، فهو يقول : [وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور] . [واصبر على ما أصابك . إن ذلك من عزم الأمور] . [ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور] . والقرآن يقرن العزم بالأمر بالإقدام ، ويدلكم على معنى التوكل فى المواجهة والعمل

(١) الغزالى المقصد الأسنى ص ١٥ ، ١٦ بتصرف يسير جدا .

(٢) قد يجعل المفسرون من فى هذه الآية للتبعيض أو للبيان والتفسير النفسى ماذكر هنا .

إذ يقول : [فإذا عزمت فتوكل على الله ، إن الله يحب المتوكلين] . . وهو الذى يجعل الإرادة شرطاً جزاؤه النـــوال والظفر فى أكثر من موضع إذ يقول : [ومن أرادَ الآخرةَ وسعى لها سعيَها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهُم مشكورا] ؛ وفى قرن الإرادة بالسعى خير بيان لحاجة التصميم إلى العمل والإنفاذ . . وهو يقول : [ومَن يُردْ ثوابَ الدنيا نُؤْتِه منها ، ومن يردْ ثوابَ الآخرةِ نؤتِه منها وسنجزى الشاكرين] . [من كان يريد حرث الآخرةِ نَزِدْ له فى حرثه ، ومن كان يريدُ حرْثَ الدنيا نُؤْتِه منها] . وبهـذا ومثله هدى القرآن إلى أثر الإرادة فى الحياة وتقدير مصائر الأحياء فيها . وما لهذه القوة النفسية من يد فى وجودهم وعملهم للحياتين . . . .

بهذا الهدى الإلهى مضى القادة الرسل إلى غاياتهم النبيلة ، وأهدافهم المنيفة يبلغون رسالات ربهم ، ويهزون أركان الوجود ، وقواعد الحياة معتزمين متوكلين ، فعالين ، ماضين وبهذا الهدى قال رسول القرآن — عليه السلام — قولته الخالدة . فى مضاء العزمة ، ونفاذ الإرادة ، قولته التى لا يمل ترددها ، ولا تـكرارها ، والتى يجدر بـكل إنسان ذى مطمع فى الحياة وغاية ، أن يرددها بقلبه قبل لسانه وينقشها على فؤاده أو جنانه ذلك قوله عليه السلام حين عرضت عليه المغريات المختلفة ، ليـكف ويدع ، فقال لعمه : « والله لو وضعوا الشمس فى يمينى ، والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر ، حتى يظهره الله أو أهلك دونه ، ما تركته » : قولةٌ قالها ضعيف ، مطارد يغرى بالعروض المستهوية ... لـكنه قد خلص من ضعف

الحاجة ، وعجز المادة ، وهيأ الله له الإرادة الثابتة القوية ، التي يخضع لها كل شيء فى الوجود ... قولة ستبقى مرددة ما بقيت الشمس والقمر ، تمتنمان على يمين المتناول ويساره ... وبهذا الهدى القرآنى اهتدى صديقه وخليفته الأول ، حين قام فى مفترق الطرق،وقد عصفت العواصف الهوجاء بالجماعة الإسلامية ، عند امتداد حركة الردة ، بعد وفاة الرسول عليه السلام إذ رأى الأصحاب ألا يدَ لهم بقتال العرب . وخالفوا فى ذلك أبا بكر ـ رضه ـ فقام فى عزمة تؤيدها نفحة قرآنية محمدية يقول : « أيها الناس ، لوأفردت من جمعكم لجاهدتهم فى الله حق جهاده ، حتى أبلغ من نفسى عذرا ، وأقتل مقتلا . أيها الناس : لومنعونى عقالا لجاهدتهم ، واستعنت الله خير معين » وكانت عزمة من عزمات الأبطال التى صانت الكيان وأنقذت الوجود ، ووحدت سير التاريخ ، وبمثلها ـ كما آذنتكم ـ خطت الإنسانية خطواتها إلى الحضارة ، على اختلاف الأعصر ، وهى مدينة لأصحاب هذه العزمات .

يا شرق ... إنه لمن الأمانة فى الحديث أن ألفتك إلى رجال ، يصف الباحثون إرادتهم ، فيقولون إنهم قد تبدو منهم حينا ، عزمة نافذة وإرادة قوية لكنها وقتية ، وإلى حين ما ، وما منشؤها إلا فورة نزق ، واندفاع حدة ، يظهرون بها فى صورة أولى العزمات ، لكن هذه الحدة لا تلبث أن تخمدوتفتر ، حينما يزول سببها ، وينتهى الداعى إليها ، والمحرض عليها ، وأمثال هؤلاء لا يصلحون للهام من القيادة والصدارة ، لأنهم فى حقيقة الأمر ضعاف ضعفا مدهشا ، رغم ما يبدو فى لحظات أندفاعهم

من صورة القوة ... هم ضعاف ذلك الضعف الواضح فى حياتهم العادية ، حتى ما يحسنون التصرف فى أيسر الحوادث أو أبسط الأشياء ، مع أنهم فى موضع القادة القادرين على تصريف غيرهم ، مع ما يظهر حينا ما من قوة لهم تتراءى مؤثرة أو فعالة ... ويقرر الباحثون ، أن أصحاب الإرادة الوقتية ، من أمثال هؤلاء لايقومون فى أماكنهم من القيادة التى يوضعون فيها وضعاً إلا إذا كانوا هم أنفسهم مقودين ، وكان لهم مهيج دائم التحريض لهم، واستولت عليهم يدمسيطرة ، ثم هم فى كل حال لايصلحون لتصدر دعوة كبرى وقيادة ذات رسالة ، وإنما يستطيعون أن يسيروا إذا كان أمامهم طريق مرسوم من قبل وسيطرت عليهم هم فكرة من الأفكار فهم يقدرون بخاصة على أن ينفذوا شيئاً سبق تدبيره وهم ينفعون فى كسب الجماهير وإهاجة مشاعرها (١) ... ومثل هذا الصنف من القادة مهما يكثر ، لا أظنه يجدى على الشرق شيئا ، إنما دواؤه فى يد أصحاب العزمات الثابتة والإرادات الماضية الذين صلح بهم أول أمره واستقام .

ياشباب ... ولن أمل المتاف بك ، ليحد جدك ، وليحيي مجدك ، بعزمة فعال لما يريد ، وإقدام يصدع بما يؤمر .. ذلك هدف حديثى إليك من هدى القرآن ، هديت ووفقت ..

---

(١) جوستاف لوبون — روح الاجتماع ص ٧٩ ، ٨٠ ـ الطبعة الثانية بتصرف

شمائل القادة

(١)

[هو الذى بعث فى الأُميِّين رسولاً منهم يتلو عليهم آياتِه ويزكّيهم ويعلّمهُم الكتابَ والحكمةَ ، وإن كانوا من قبل لَفِى ضلالٍ مُبين] . .

كلما أزم الأمر ، ودارت عجلة الدهر ، تصر صريرها الرهيب تطحن أمماً ، وتسحق دولا ، والرءوس تطاير كالهباء . وقد غدا الإنسان ، سيد الكون ، أرخص ما فى الكون كلما جد جد الحرب . ونظرت حولى إلى هذا الشرق ، صاحب الأمس ، فإذا هو اليوم ، فى كثير من نواحيه ، لا يميل كفة الميزان بشعرة ، مع ما لأهله من ضجيج وعجيج يصم الآذان . . نظرت فارتعت ، مشفقاً من هذه الحال المؤسفة وفزعت إلى القرآن . ألتمس كلماته الخوالد ، إلى هؤلاء الناس ، فإذا أنا أتحدث من هدى القرآن ، فأطيل الحديث ، وأكرر القول عن القادة والرجال ، وإذا كلمات القرآن فى ذلك لا تنفذ ، وهديه عن حياة أولئك القادة والرجال ، لا يقصر عن الحاجة الملحة بالشرق إليهم ، ولا يهمل الواقع المتكرر ، بل يسجل نواميس الاجتماع المطردة مما خفى قديما أو عرف . . . فهل يدرك قومى – ولا سيما الشبان – أن هذه الأحداث السراع ، وتلك التحولات الطاغية تهيب بهم ، إلى التماس القادة ، وافتقاد الرجال ، والتغنى بشمائلهم ، والإشادة بطبائعهم ، ومزايا أخلاقهم ! ! ! .

أيها الشاعرون بحقهم فى الحياة . . .

تحدثت إليكم عن عزمات القادة الذين إرادتهم من إرادة الله ، كما قالت الصوفية ، وأريد لأتحدث إليكم عن شيء من شمائل القادة ، وجوانب من الطباع تميز شخصياتهم ، فأشير من ذلك أولا ، إلى مايحتاج إليه النفوذ العميق ، والشخصية المتصدرة ، من فطنة وذكاء يحمى النفوذ ، ويحوط القوة ، ويمد العزمة الماضية بمدة النجاح ، وأداة الإنفاذ ، إذ به يكون الإنقاذ من المراكز الحرجة ، والتخلص من المباغتات الطارئة والتدبير للمواقف الشديدة الآزمة ، فرب لمة من ذكاء نافذ تكشف ظلمات وحجبا من الغيوم ، وتفتح الطريق إلى النجاة والظفر . . . هذا إلى جانب ما للذكاء من اتصال قوى بالخلق الكريم ، على ما أيدته ملاحظة الباحثين المحدثين إذ وجدوا هذه الصلة وثيقة ، فى رجال كثيرين ، نجحوا نجاحا موفقا ، إذ كانوا حكاما صالحين فكان أكثرهم على جانب كبير من من الذكاء مع خلقه الكريم[1] . . وإذا ما كان للفطنة أثرها فى حياة الرجل يدبر لنفسه ، ويسوس معيشته الخاصة ، فكيف بأثرها فى المتصدر للقيادة يروض أمة ، يختط لسير الجماعة ومستقر غدها ومستقبلها ! ! وأكبر فضل الفطنة والذكاء فى أن ينتهيا إلى لون من الحكمة الرزينة ، والحزم الحاسم أو ضرب من سداد الرأى ، يعرف به القادة ، كيف يصدرون قبل

(١) فى علم النفس للصديقين محمد عطية الابراشى ، وحامد عبد القادر جـ ٣ ص ٣٧٨ طبعة أولى

أن يردوا ، وكيف يمضون وينفذون إذا اشتجر الأمر وتشعبت الطرق ، وضغطت الحـــوادث ، مسارعة معجلة ! . . فتلك الحكمة هى ملاك الشخصية اللامعة ، وهذا الرأى السديد ، هو ما يغلب به القائد هواه ، ويحبس ضعفه ، ويحسم بوادر الوهن فى جنده ورجاله ، فيرد الكثرة المتشعبة إلى وحدة متراصة لا تخلخلها الصدمات ولا توهنها الملمات ، وما ربط بينها هذا الرباط الوثيق إلا حكمته المتبصرة ورأيه الرشيد ، والحكمة أساس شخصية الرجل الفرد بين أفراد قومه ، فكيف بها فى من هو رأسهم المدبرة ، ومركز القلب من جسمهم !!..

لن تكون شخصيةٌ جذابة ، ولا نفوذ مؤثر إلا حيث الحكمة التى لا يهن معها رأى ، ولا تضطرب بصيرة ولا يفسد تقدير ، ولا يستخف القادة كبر ولا تزدهيهم خيلاء ، ولا يغلبهم حقد ، ولا تختل لهم موازنة بين قيم الأشياء والأشخاص ، ولا تستفزهم غيرة من رءوس تظهر حولهم ، وقوى نافذة تحد منهم ، ولا تشغلهم نوازع فردية يحسبون معها أنهم يعملون لأنفسهم ، ويبنون جاههم ، ... كل أولئك وأشباهها من نزعات ، يتعرض لها القادة ، بحكم مراكزهم ، وتمتحن بها نفوسهم ، فى ميدان العمل ، فلا يعصمهم فيها ولا يقيهم شرها ، إلا حكمة رزينة ، ورأى سديد ، وتقدير صحيح ... وتلك الحكمة تتطلب لونا من القدرة العقلية ، ليس هو النفاذ فى بعيد الفروض ، وغريب الاحتمالات ، إذ أن مثل هذا النوع من التفكير والتأمل ليس من خير العاملين ، ولا من قوى أولى العزم والإقدام ، بل هو ضار بهم أحيانا ، ومسىء إليهم ، إذ لا يلبث التأمل المسرف والافتراض المبعد

أن يسلم إلى الشك . والشك يؤدى بظلامه وحيرته إلى الفتور والوهن ، وينتهى الفتور إلى السكون والتراخى فلا إقدام ولا إنجاز ... وبهذا يكون التطرف فى التفكير الموازن ، بدعوى الحذر والدقة ، مضيعا للفرص ، خطرا على صاحبه ، مثل خطر الإقدام الطائش ، إذ يدفعه إلى الإسراف فى تقدير الموانع والتوسع فى توقعها واحتسابها ، بمعاونة الذكاء النظرى الفسيح ، وهذا هو الذكاء الذى لا ينتهى إلى الحكمة ولا يعين على سداد رأى ، ولا يصح به تقدير ، ولا تقوى شخصيّة ، ويمتد نفوذ ...

أصحاب العزمات المرجوة ..

إن الحزم فى الحياة العاملة ، يتطلب مزاجا معتدلا متسقاً لا تعوزه الفطنة ، كما لا يوهنه الذكاء النظرى وحوادث الحياة متعجلة غير متأنية ، ولن تُمتب مبطئاً يعجز عن تأليف هذا المزاج المتعادل الأجزاء من نظر ومضاء معاً ، بل تتطلب رأيا فى إقدام ، وتفكيرا فى حزم ، وحكمة فى نفاذ ...

وتلك هى الحكمة ، التى نعتدها من شمائل القادة ، وليس يجب أن نلتمسها فى واسعى الإطلاع ، ولا أصحاب القـــدرة العلمية النظرية ، ولا المتعمقين فى صنوف من العلوم العالية ، فكل هذا مما لا تنهض به وحدة شخصية بل له كما رأينا خطره ، على عزمات الماضين ، وإقدام العاملين ، ولذا رأينا — ونرى — من يدبّرون الشئون الكبرى فى الحياة ، ويتسلمون الأزمة أناسا من غير هذا الطراز ، قد زانتهم الحكمة العاملة ، والذكاء القدم ، أكثر مما أسعفهم التبحر والتوسع ، مما لا غناء فيه ولا وفاء فى حياة العمل .

تعالوا إلى هدى القرآن ، نسمع كيف أعد رجاله القادة ، ورسله البناة ، وبم نفحهم ؟ وماذا علمهم ؟ إنا لنسمعه يقول لعيسى عليه السلام : [اذكر نعمتي عليك ، وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس ، تكلم الناس في المهد وكهلاً ، وإذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل] كما يقول عنه أيضاً : [ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل] وكذلك يمتن على الأمم بأنه بعث إليهم الرسل يعلمونهم الحكمة إذ يقول : [كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم مالم تكونوا تعلمون] .. [لقد من الله على المؤمنين ، إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين] وتلك الحكمة هي التي يمتن الله بإتيانها الأنبياء وغيرهم [ولقد آتينا لقمان الحكمة أن أشكر الله] [ولقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة] . كما يقول عن داود عليه السلام : [وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب ، وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء] كما نسمع أن تلك الحكمة خير كل الخير [يؤتي الحكمة من يشاء ، ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً ، وما يذكر إلا أولو الألباب] وما أنزل على الرسل هو الحكمة كذلك إذ يقول لرسول القرآن عليه السلام .. [وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة ، وعلمك مالم تكن تعلم ، وكان فضل الله عليك عظيما] كما يقول لأمته : [واذكروا نعمة الله عليكم ، وما أنزل عليكم من

لـكتاب والحـكمة يعظـكم به واتقوا الله واعلموا أن الله بكل شيء عليم] ويقول لآل بيته [واذكُرْنَ ما يُتلى فى بيوتكُنَّ من آياتَ الله والحكمة] ويقول عن النبيين جميعاً عليهم السلام : [وإذْ أخذَ الله ميثاقَ النبيين لما آتيْتكُم من كتاب وحكمة] ومن معنى هذه الحـكمة التى رأينا دورانها فى الحديث عن الرسالات ، وبيان شأن الحياة ، ومابه انتظامها ، من معنى هذه الحـكمة التى علمها الأنبياء ، وعلمتها الرسل للأمم ، نعرف ما يريده القرآن للرسل القادة من تعلم وتعقل ومعرفة .. والحكمة فى أصل معناها اللغوى ترجع إلى المنع طلباً للإصلاح ، فالحـكيم هو الذى يمنع نفسه ، ويصرفها عن هواها ، والحـكمة وضع الشيء فى موضعه وهى صواب الأمر وسداده ، وهى على هذا إنما تشمل العلم والعمل دائماً ، فهى معرفة الـكون وفعل الخير كما يصرح القرآن بهذا المعنى العملى للحكمة ، حين يعد طائفة من أصول الأخلاق أوامر ونواهى فى سورة الإسراء ، ثم يعقب عليها بقوله : [ذلك مما أوحى إليك ربك من الحـكمة ..]

ومن هذا الهدى القرآنى لمعنى الحـكمة ، وأنها فى الناس معرفة الحق وعمل الخير معا ، نعرف ما يراد من حكمة القادة وما يطلب فيهم من أصالة الرأى ، وحسن التقدير ، ولطف التناول العملى ، لا المقدرة النظرية المجردة ولا الترديد العقلى لمعان أو فكر ، وعلى هذا الهدى العملى القرآنى ، نستبين شمائل القادة ، وخصائص الرجال الصالحين لتسيير الحياة وقيادة الجماعة ، قيادة موفقة ناجحة ...

لقد ذهب المتكلمون ، يبينون الشروط الواجب توفرها ، فى الرسل

القادة فعدوها صنوفا منها ما هو خلق أدبى ، ومنها ما هو عملى تنفيذى ، ومنها ما هو ذهنى ، فعدوا الصدق والأمانة من الأخلاق ، واشترطوا من العمل، التبليغ والأداء ، وشرطوا الفطانة الذهنية ، وهذه الفطانةهى التنبيه إلى المعنى واتقاء الغفلة ، وكل فطنة علم ، وليس كل علم فطنة .. وما دامت لنا فى الرسل الأسوة الحسنة فعلى غرارهذا تكون شمائل القادة الذين يصلحون للتدبير ، هى تلك الحكمة المانعةعن الهوى ، الدافعة إلىفعل الخير . لكن من المتحدثين فى شمائل الرسول عليه السلام ، من توسع فى ذلك أيما توسع فلما تحدث عن بلوغ رسول القرآن عليه السلام ، الغاية من كمال العقل ، الذى منه ينبعث العلم والمعرفة ، ويتفرع ثقوب الرأى وجودة الفطنة ، والإصابة ، وصدق الظن ، والنظر للعواقب ، ومصالح النفس ، ومجاهدة الشهوة ، وحسن السياسةوالتدبير ، لم يقف عندهذا الحد ، بل مضى فى بيانه فقرر « أن فنون العلوم المختلفة ، قد اتخذ أهلها كلامه عليه السلام فيها قدوة » وعد من هذه العلوم التى تعتبر شارات الرسول عليه السلام فيها حجة : علم الطب ، والحساب وغيرذلك [1] ولا أحسب هذا التوسع يساير هدى القرآن الكريم ، فى بيان ما علمه للرسل ، وما علمته الرسل للامم ، فقد رأيناه يكرر بيان ذلك ، غير معنى بشىء من أمثال هذه العلوم ، وتلك المعارف ، لأنها ليست من شأن أصحاب التدبير الإجتماعى لحياة الأمم ، ولا من مهام أصحاب القيادة العملية .. وما هذا القول إلا من التزيد الذى ظنوه حيناما يرفع من قدر القرآن فعدوا القرآن مصدر كل علم ، وبذلك

(١) مُلاًّ على القارى على الشفا للقاضى عياض ١ : ٢٣٣ — طبعة استانبول .

شغلوه عن الهدى الإجتماعى والتدبير النفسى الذى هو المهم الأول ، والشأن الأعظم فى الحياة ، فحسبنا فى شمائل القادة ، ما هدى إليه القرآن من «الحكمة» وحبذا الحكماء من رجالنا يبعثون فى الناس الحياة ..

ياشرق .. لقد بعث الله فى العرب الأميين ، رسولا منهم ، أميا مثلهم ، لكنه القائد الحق ، فزكاهم ، وعلمهم الكتاب والحكمة فكانوا المجاهدين بأنفسهم وأموالهم ، توجوا مجدك ، بحضارة باذخة ، ودولة واسعة ، بعثت العقول ، وخلقت العلماء وتركت لك من تراث تاريخك ما لن تنساه .. هذه تجربتك القديمة ، ثم تلك أمة العرب الحديثة . وما أشبه الليلة بالبارحة ، فى تجارب الحياة ، تنادى كلها بأن بناء الأمم يؤسس على الحكمة العاملة ، وأن بناة الأمم إنما هم رجال الخلق والعمل قبل كل شىء .. واليوم - ياشرق - قد ألقيت أمرك ، لأشخاص لعلهم كانوا فى صغرهم الطلبة النجباء ، أوفى كبرهم ، المقاويل البلغاء ، أو الموظفين الكبراء ، ولكن من هم فى الفطنة الحكيمة والحكمة الفطنة ؟ !! ليسوا بذلك ، فرأيتهم يقولون ، ولا يفعلون ، ويدورون ولا يقدمون ، فهل لك إلى أن تلوذ بقديم تجاريبك وحديثها فتؤمن بأن أصحاب الحكمة ، لا العلم النظرى ، هم الذين يزكونك ويطهرونك ، ويسودونك ويعزونك ، لا بالقول المطنطن ، بل بالسداد والرشاد والفعل المقدم ..

ياشباب .. ماتحدثت عن فطنة القادة والرجال وحكمتهم ، إلا وأنا شاعر بحال متعاميك ، وسوء تقديرهم لأنفسهم ، إذ يظنون أنهم يوفون على الغاية يوم يحملون إجازة كذا ، ويتمون فى العلم مرحلة كذا ، وأما كيف يصلحون

للتدبير الحكيم ، ويستطيعون الرأى السديد ، وتواتيهم فى العمل الفطنة النافذة فشيء لايحسبونه .. فهل ترانا ـ ياشباب ـ قد أثرنا فى الحياة ، وتأثرنا بها ، بقـــدر ماصار فينا من حافظين ودارسين ، ومن نسميهم متعلمين ؟ ! اللهم لا ، ولا .. إنما يصلح للحياة ، ويصلح الحياة ، من ظفر بحكمة الحياة ، لامن تحدث وحدث عن حكمة الحياة ، وليس صاحب الفضيلة ، هو الذى يتعلم الأخلاق ويعلمها ، بل الذى يؤمن بها ويلتزمها ، فهيئ نفسك ياشباب ، بالتدبير الحكيم ، والتقدير الفطن : لتحدث فى الوجود أثراً ، وتتم فى الحياة عملا ، بعد أن تنال منها علماً ونظراً .

شمائل القادة

(٢)

[وهو الذى أنشأكم من نفسٍ واحدة ، فمُستَقَرٌ ومُستَوْدَعٌ ، قد فصَّلنا الآياتِ لقوم يَفْقَهُون] صفت سماؤكم حين غامت سموات الآخرين ، واعتدل جوكم حين اضطربت أجواء الآخرين وأخصب واديكم حين أجدبت أودية الآخرين ، وتقدمكم فى طريق الحضارة آباء أقاموا لكم فيه معالم لا تبلى ولا تبيد ، حين ضلت معالم الطريق جموع الآخرين ... ولكن هؤلاء الآخرين مضوا يتناهبون الحياة ، وأنتم وقوف منها موقف الضال التائه !! فأين أنتم والجد والمجد ، والعظمة والجاه ، والقوة والسيطرة ! ! ! .

أيها المؤمنون بحقهم فى الحياة .. فى سبيل هذا طال حديثى إليكم عن القادة والرجال ، ولفتكم إلى بعض شمائلهم وخلائقهم ، فحدثتكم من ذلك عن الفطنة النفاذة التى تبين الغائب شاهدا ، وعن الحكمة العاملة التى تعرف الصواب ، وتعمل الخير ، وأثرهاتين الصفتين فى حياة الجماعة وماضى الشرق ، إذ كان له من قديم قادته ، وحديث رجاله ، فطناء حكماء ولو أنهم أميون ، فسادوا وشادوا ، وخلقوا نهضات ، وأقاموا دولات وأنه اليوم لأحوج إلى واحد من هؤلاء يرد عليه بعض حقه ، ويحكم بعض أمره ، ويقضى على بعض عبثه ويأخذه ببعض الجد العامل .

أيها المؤمنون بحقهم فى الحياة .. أتابع الحديث الآن عن شىء من

تلك الشمائل والخلائق ، وبعض هدى القرآن صناع الرجال ، ومروض الأمم المدبر لعزها وسؤددها ، ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ، فأشيرُ إلى خليقة من خلائق القادة ، قوية الخطر عنيفة الأثر ، فى شخصيتهم ونفوذهم بين جماعاتهم وسيطرتهم على أقوامهم ... صفات تحدث عنها القرآن ، فى قادته الرسل ، فأمنت الحياة ، والبحث النفسى ، على هذا الحديث الأسبق ، والحق الأقدم .. وتلك من شمائلهم هى المشاركة الوجدانية بينهم وبين جماعاتهم ، والارتباط النفسى ، الذى يصل قلوبهم بقلوب أقوامهم ، ويربط بين أرواحهم وأرواح أممهم ، فيجمع الكثرة فى وحدة ، ويصير البعيد النائى حاضراً قريبا ، يبادل قومه حساواحدا ، ويرمى وإياهم هدفا واحدا ، ويحقق معهم غاية واحدة ... ذلك أن شخصية القادة ونفوذهم إن اعتمدت على قوة جاذبيتهم ، وقامت على عظم استمالتهم لمن حولهم ، استمالة معنوية روحية أو أن شئتم أستمالة كهربائية متغلغلة ، لا تصنع فيها ولا تكلف ، ولا احتيال ولا افتعال ، وإنما أهمُّ عناصر هذه الجاذبية ، وأقوى أسباب ، تلك الاستمالة . هو المشاركة الوجدانية التى توحد بينهم فى الشعور بالسراء ، والتأثر بالضراء ، وتدع القادة يعيشون معهم فى عوالمهم ويتنفسون معهم فى أجواء نفوسهم ، يجدون ألمهم أصدق وجدان وأدقه ، وتهفو قلوبهم بآمالهم ، فى مثل استهواء تلك الآمال لقلوب أعوانهم واستيلائها على نفوسهم ، وهم بهذا النفوذ إلى أرواحهم يستشفون أفكارهم ويدركونها دون حاجة إلى تعبير عنها وقبل أن تنفرج الشفاة ببيان لها أو شرح ، بل يدركونها حتى حين

تعجز الجماعة عن الإيضاح ويعوزها البيان الكافى لأنهم — كما قلت — يشعرون بشعورهم ، ويفكرون بعقولهم ، وتستهويهم ، وتؤرقهم أحلامهم ، ويصيبهم طموحهم ، ويجسمون من ذلك مادق وخفى ويرتقون إلى ما تباعد فى التسامى والطموح ..

أيتها النفوس الملهمة . . إنما تحدث تلك المشاركة الوجدانية ، وهذه الصلة النفسية أثرها إذا ما قامت على تعادل نفسى ، واتزان روحى فى القادة ، بحيث لا تطغى عليهم رقة العاطفة فينتهون إلى مشاركة رقيقة ضعيفة تحاول استمالة الجموع ، بستر أخطائها ، وإخفاء أغلاطها ، وتجاهل مواضع ضعفها ، ولا تغلبهم أهواؤهم الذاتية فيعملون لاجتذاب تلك الجموع على مداهن ، وترفق مسرف ، يعرف موقع هواهم ويسبق إلى موضع رضاهم . ويحرص على كسب حبهم والظفر بتأييدهم . . لا ، ثم لا ، إنما المشاركة المرجوة هى المشاركة التى تهتدى بالصلة النفسية فى الإدراك الصحيح للخطأ والصواب . بتقدير سليم ، وموازنة منضبطة صائبة . تعرف موضع القوة والحق فيهم فتؤيده وتشيد به ، مغتبطة مبتهجة ، سعيدة مفاخرة ، وتعرف الضعف والخطأ ، معرفة صحيحة عادلة ، فتصد عنه ، وتمنع منه فى غير هوادة ولا استحياء ، لا يغلبها على ذلك الوجدان ، ولا يهزها العطف فيحول بينها وبين المواجهة الصريحة الجريئة ، على أن تكون صراحة وجرأة ، لا تحط من كرامتهم ، ولا تغض من اعتدادهم ، فهى مشاركة نفسية عادلة ورحيمة معا ، لأنها عادلة فى غير قوة ، مجاهرة فى غير ملاينة ، مصلحة فى غير ضعف ، تألم لخطأ الخاطئين قدرما تبتهج

بصواب الموفقين ، لأنها تحرص على هؤلاء بقدر ما تغتبط بأولئك ، تقدر للمخطىء ظروفه وبواعثه وأعذاره إذ هى تحسب بنفسها لنفسها ، فتلتمس المعذرة ، وتبذل المغفرة ، وتقسو أو ترق لتصلح لاغير . وإذا ما كانت تلك هى المشاركة الوجدانية التى هى رباط روحى ، يوثق ما بين القادة وجموعهم ، فليس من القادة من يظنون أنفسهم المصيبين أبداً ، وغيرهم هو المخطىء المسىء أبدا ، ويحسبون أنفسهم المخلصين الصادقين فقط ، وغيرهم هم المفسدون الكاذبون دائماً لارأى لهم حتى يسمع ولا عذر عندهم حتى يبسط ولا حق يمكن أن يعترف لهم به وأمثال هؤلاء لايشاركون قومهم مشاركة وجدانية ، ولايعيشون فى نفوس مخالفيهم لأنها من نفوسهم ، ولايفكرون بعقل معترض عليهم لأنه من جنس عقلهم ، وبذلك يخسرون ولايكسبون ، ويفسدون ، ولايصلحون ، ولايقودون بل ينفرون ، ولاتلبث أشخاصهم أن تكون أعلام فرقة وشارات خلاف .

أيتها النفوس الملهمة .. إن المشاركة الوجدانية من القادة لجماعاتهم ، إنما تقوم على اليسر والسهولة فى خلائقهم ، وتعتمد على القرب التام منهم ، وعلى التواضع المطلق لهم مع سعة الصدر ، ورحابة النفس حتى تلقى ألوان الناس جميعا ، وتتسع لأنواعهم جميعا ، وتتفهم من العقول جميعا ، وتحرص على أهلها جميعا دون أن يكون ذلك عن تصنع أو تحايل ، بل عن إقبال ووحى صادق ، وبسطة نفس سمحة ، وسمو روح ذاتى ، يألم لخطأ الخاطئين كأنه خطؤه ويسعد بتوفيق الموفقين كأنما هو عمله ، ومادون ذلك من سلوك وتصرف ، لن يهيىء لتلك المشاركة الوجدانية ولن يحققها .

لقد مس الهدى القرآنى تلك الناحية من نواحى عظمة القادة الرسل ، مسه الروحى النورانى ، فجاء من ذلك بالعجب المدهش .. ولقد كنت تحدثت عن هذه المشاركة النفسية ، فى الحديث عن سلام الأسرة ووحدتها النفسية فأشرت أشارة لامحة ، إلى تلك الوحدة بين الرسول والأمة .. وإنكم لتعرفون أن القرآن قد أمتن على المؤمنين ، بأن بعث الله فيهم رسولا من أنفسهم ، [لقد مَنَّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكِّيهم] .. وقد كانت دعوة إبراهيم عليه السلام للأمم من ذريته ، أن قال : [ربنا وابعث فيهم رسولا منهم ، يتلو عليهم آياتك ويزكيهم] وأقوى ما قرر القرآن فى شأن هذه المشاركة الوجدانية للقادة قوله : [لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عَنِتُّمْ ، حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم] كلمات قيل إنها آخر ما نزل من القرآن ، فكانت أحدث الآيات بالله عهدا ؛ وقال عمر (رضه) لو كانت ثلاث آيات لوضعتها على حدة ، ولكنه إن لم يضعها سورة على حدة ، فإنها القرآن عجب يهدى إلى الرشد ، وسورة كاملة فى رياضة الرجال ، وصنع القادة الأبطال ، سورة لا ينبغى أن تغفل عنها لحظة ما ، عين متصدر لرياسة ، أو متصد لقيادة ، مهما يكن لونها وشأنها . ولقد شعر المفسرون من قديم الزمن بقوة ما فيها من صفات القادة فوقف عندها الواقفون منهم بقدر ما تناله عقولهم ونفوسهم ... وهى اليوم فى المشاركة ، الوجدانية التى عيزها النفسيون بين عناصر الشخصية أكمل دستور ، وأوفى بيان .

جعلت ما بين القادة الرسل وقومهم ، وحدة نفسية ، إذ جاءهم الرسول

من أنفسهم ثم كان عزيزا عليه عنتهم شاقا على نفسه ما أعنتهم وأضرهم أو ضلوا به وأثموا ، ثم هو الحريص على إيمانهم وصلاحهم ، حريص على ضالهم أن يهديه الله ، وإنه لذلك الحرص الذى تقف عنده ، بما وقف عنده القرآن وتحدث عنه ، ثم بما تحتاجه حياتنا وبما ينقص فى أخلاق قومنا ، هو ذلك الحرص ، الذى مثله القرآن فى رسوله عليه السلام ، عنيفا متهالكا إذ يقول له : [فلعلك باخع نفسك على آثارهم ، إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا] كما يقول : [لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين] والبخع قتل النفس غما . ولعله مهلك نفسه ، مبالغ فى ذلك ، حرصا على أن يؤمن الكافر من قوم لأنه حريص عليهم جميعاً ، عزيز عليه عنت من آمن ومن لم يؤمن على السواء ، والله عم بالخبر عن نبى الله ، أنه عزيز عليه ما عنت قومه ، ولم يخصص أهل الإيمان ، فكان ﷺ كما وصفه الله عزيز عليه عنت جميعهم[1] . ثم هو بعد ذلك كله كما وصف آخر الآية : [بالمؤمنين رءوف رحيم] وصفه الله بالصفتين اللتين وصف بهما نفسه حين قال : [وإن الله بالناس لرءوف رحيم] . والرأفة فيما قالوا ، أبلغ من الرحمة وأقوى ، حتى ليرى بعضهم ، أن الرأفة لا تكون إلا لله تعالى ، لأنه هو وحده ، الذى يعطى لغير غرض ولا غاية ، والرأفة إيصال النعم ، صافية خالية من الألم فالرأفة مبالغة فى الرحمة ، تتقدم ذكر الرحمة فى القرآن دائما ، لتلفت إلى أن تكون رحمة الراحمين كاملة سامية . . .

---

(١) عبارة الطبرى بلفظها جـ ١١ ص ٥٦ وقد ناقش فى اتفاق ذلك مع معاملته للكفار ، وأجاب بما يدفع كل اعتراض .

وهكذا رسم الهدى القرآنى لقادته الرسل ، طرق أداء رسالاتهم الكريمة ، فى توجيه حياة أممهم . . ومضى رسول القرآن عليه السلام ، يحقق ذلك فى عظمة نفسية ، وبمشاركة وجدانية لقومه جعلته أبا للناس ، شفقة ورحمة ، أبوة صلح بها لقول القرآن عنه : [النبى أَوْلَى بالمؤمنين وأنفُسِهِم وأزواجه أمهاتُهم] . فكان دائم الفكر ، فى عاقبة أمرهم ويتفقد أصحابه دائما ويتعهدهم ، ويتتبع أحوالهم ، ويسعى فى حاجاتهم ، حتى قالوا : « إن كانت الأمة من إماء المدينة ، لتأخذ بيد رسول الله ﷺ فتنطلق به حيث تشاء ، من طرق المدينة وبيوتها فى سبيل قضاء حاجة لها » . فأسس هذه المشاركة الوجدانية ، على سهولة الخلق ويسره ، وتواضعه الدمث النبيل ، وبكل أولئك ألف أصحابه ، وجمعهم ، ولم ينفرهم ، حتى كان يحترس ممن يحترس منه ، دون أن يطوى عنه بشره ولين خلقه ، . . وكانت تلك المشاركة النفسية تتناول خصومه ، كما تتناول أنصاره ، تتسع لتقدير حالهم ، والرفق بهم ، كان يلقاه الرجل منهم بالمجابهة السفيهة المخالفة أو السبة المفحشة ، فيهم أصحابه به وأيديهم على سيوفهم يريدون قتله ، فيردهم عنه ويحميه ، وما يزال يتلطف به حتى يرده مؤمنا مخلصاً ، ووليا حميا ، بعد عداوة جامحة . . وعلى ضوء هذا الهدى القرآنى ، والسلوك النبوى ، أدرك من أدرك من أولى الأمر فى الإسلام مدى المسئولية الاجتماعية الهائلة ، التى يضطلعون بها ، حين يولون أمر الناس ، فهيئوا أنفسهم للمشاركة الوجدانية الكاملة ، مع أفوامهم بما عسوا ليلا ، وما تجسسوا وتعرفوا ، وتحروا من شئون الناس ، تحقيقا للعدل ، وفاضت شئونهم ، إشفاقا من هول ما يحتملون .

ياشرق ... كذلك أدّب ربك ، قادتك ورجالك ، وكذلك عرفوا واجبهم ، وأدركوا مسئوليتهم ، فكانوا حينا من الدهر مثلا صالحة ، سجلت حقك في المجد ، وانتزعت حظك من العظمة ، .. واليوم إذ حق الانبعاث وفرض النهوض ، وألحت الحاجة إلى الرجال ! اليوم يقدمك ناس هم فيك اسما ونسبا ، لكن أين هم من طابعك ومزاجك وعالمك النفسي الخاص ! أين مشاركتهم الوجدانية لقومهم ؟ أين تواصلهم النفسي معهم ! هل يعيشون في عوالمهم ،هل يتنفسون في أجوائهم ، هل يشعرون بمصاعبهم هل يجمح خيالهم ، فيتصورون من خلال أضواء الثريات . وأصداء النفحات وانساق الأزهار ، هل يتصورون من خلال ذلك ، كهوف الكفور وسراديب الأزقة ، وظلمات الجهل ، وغوائل المرض ! هل يشاطرون ضحايا هاتيك النوائب كلها آلامهم،وينفعلون بها انفعالهم ، أو قريباً منه ،أوشبيها به ؟!! لو كان من ذلك شيء مهما يضؤل ويضعف إذن لبسوا شئون الحياة واتصلوا بجدها ، وأمسكوا عن غير ذلك من قول عابر ، وكلام متبختر وعبث تافه ..

أين مسايرتهم النفسية لحياة قومهم إذ طال تصدرهم فيها ، ووقوفهم بها ؟ لقد جاءوها في وقت مضت بعده أعوام وأحوال ، تغيرت فيها الحياة كثيراً ، وتطورت سريعاً ، فهل أدركوا أن أمورا جدت ومشاعر تولدت وآمالا تسامت ؟ هل تجددت لذلك عندهم خطة ، أو تطور له تقدير ! أم يدأبون على ترديد عبارات قديمة ترديد المسبحين، ويدورون في أول ماأوقفوا فيه من مدار !!!

أين مشاركتهم النفسية ، وصلتهم الوجدانية بمن يبادلونهم التفكير ، وينازعونهم الرأى ، ويقاسمونهم العمل ؟ هل يعز على واحد منهم ما يعنت صاحبه ، ويشق عليه ؟ هل يعز عليه خطؤه أو ضلاله ؟ هل يحرص على هدايته ، هل يحرص على تعاونه ؟ هل فيهم رؤوف بصاحبه رحيم ؟ إنما يتلمس كل منهم خطأة صاحبه ، ويتسقط زلة مشاركه بل يكذب ليشوه سمعته وينتحل ليشنع بغلطته ، وهكذا لا ترجو فيهم رجاء ولا تنوط بهم أملا ، وهم حرب على أنفسهم وقومهم ، بأسهم بينهم شديد وقلوبهم شتى . وتسألهم ماذا لكم من الأمر فتختلفون ؟ وماذا فى يدكم فتتنازعون ؟ فلن تجد لذلك جوابا ، ولن تنقطع لهم شحناء .

يا شباب ، انغمس فى حياة قومك ، وعش فى عوالم قومك ، تهىء لهم رجالا من أنفسهم يعز عليهم ما يفتنهم ويحرصون عليهم ، ويكونون بهم رؤفاء رحماء ...

شمائل القادة

(٣)

[وله الكبرياءُ فى السموات والأرضِ وهو العزيزُ الحكيمُ] وبعد،
طال انتظار الشرق قادته . وابتغاؤه رجاله فتنفست يتنهده ورحت أتحدث عن شمائل القادة ، غير مرة .. وكان آخر القول فى شمائلهم عن المشاركة الوجدانية والمواصلة النفسية بينهم وبين قومهم ، وما جاء به القرآن من هدى عن تلك المشاركة .. وا كبر ما ينغص حياتنا اليوم منها ، حين نشهد المتصدرين ، وقد أعوزهم الإيمان بشخصية هذا الشرق وعظمته ، وفاتهم التمثل الكامل لطابعه الخاص ، ومزاجه المتميز ، فهم يأخذون من شئون الحياة ويدعون ، غير مهتدين ولاواضحين ، قد غمرتهم فى حياتهم الاجتماعية والعقلية والسياسية نزعات غربية لم يسألوا عن صلاحيتها للشرق ولم يبحثوا ملاءمتها له ، فهم فى تفكيرهم ، وتدبيرهم ، مثلهم فى عملهم وتنفيذهم كما هم فى نظام حياتهم ، مقلدون مسيرون ، ومن هنا لا يحسنون الاستجابة دائما ، لما تهوى إليه أفئدة قومهم ، ولا يسايرون تقدم آمالهم فما تأتلف منهم قوة ، ولا ينالون من عدو نيلا ، ولا يبلغون من غاياتها مبلغا . وتلك وأشباهها نواح نجد فى هدى القرآن المتسع لإصلاحها ، وفى بيانه عن شمائل القادة ما يرجى خيره فيها فلنمض إلى شيء آخر من ذلك . [ونُنَزِّلُ من القرآن ما هو شِفَاءٌ ورحمةٌ للمؤمنين] ..

يصف الدارسون للحياة ، ظاهرة واضحة فى سير الجماعة وأفعالها ،

هى أنه حين تتوحد فكرتها ، ويتحد اتجاهها يكون لها جو معنوى شامل يجعل الفرد من أفرادها ، يتأثر بما يقع أمامه ، تأثرا قويا ، ويلتفت لما يحدث على مرأى منه التفاتا مستعدا ، ولاسيما حينما يصدر الفعل عن شخصية قوية بارزة ، فإنه يثير فى المشاهدين له من أفراد تلك الجماعة ، ميلا إلى الإتيان بمثله والمحاكاة فى فعله فيكون الفعل الأول الذى صدر من صاحب الشخصية المؤثرة لافتا ومنبها يدفع المشاهد إلى المحاكاة والتقليد المماثل ،ولهذا الناموس فى « اللفت والمحاكاة » أثر كبير ، فى كثير من حركات الجماعات وأفعالها ، بل لناموس « اللفت والمحاكاة » أثر فى فعل الأحياء المختلفة ، من إنسان أو حيوان ، وبه يفهم ما يقع أمامنا من متابعات واندفاعات ، فى أشياء نفسية ، وفى أعمال مادية ، تترتب عليها حركات كبرى مؤثرة فى سير التاريخ وإذا ما أدركنا هذا الناموس فى « اللفت والمحاكاة » عرفنا ما يمكن أن يكون للقادة ، بقوة شخصياتهم من أثر بعيد فى حياة قومهم ، فهم يلفتون أممهم لفتا فعالا ، وينبهونها إلى محاكاتهم فى أعمال قد تكون فى سجل المجد صفحات بارزات ، وقد تكون فى حساب التاريخ سقطات قاتلات .

أيها المؤمنون بحقهم فى الحياة . . إن القادة بما لهم من هذا الأثر الهائل تلتمس فيهم ألوان من قوة الشخصية ، وفنون من سحر الجاذبية وترجى لهم خلائق تكون من القوة والسلامة بمكان عظيم ، حتى تلفت شخصياتهم وجاذبياتهم ، وشمائلهم الكريمة إلى الخير والبر ... فهم أحوج الناس إلى قوة خلقية تنطوى على كبر النفس ، وعظم الهمة ، والشهامة والنجدة ، واحتمال الكد ، والصبر على العظائم فى المطالب الهائلة ، ليتم لهم الاستعداد

والرضا باحتمال الآلام والمخاطر مهما يكن نوعها من جسمانية أو نفسانية . فيقوموا بواجبهم ، فى غير ترويع ولا اضطراب .. هم أحوج الناس ، إلى قوة خلقية ، تنطوى على الاستهانة بالشدة والاقتدار على حمل المكاره ،والثقة عند المخاوف ، إذ هم فى الطليعة دائماً ، عملهم الأول أن يقدموا فى اللحظة المناسبة وأن يسددوا الضربة الأولى فى حينها ،وأن يقتنصوا الفرصة فى البرهة التى تسنح فيها ، دون رهبة مؤخرة ولا تهور طائش متعجل .. هم أحوج الناس إلى قوة خلقية ، تستطيع احتمال سعادة الجد بمثل ما تحتمل شقاوة الحظ ، فى غير شغب ولا غضب ، ولا وهن ولا برم ، فأذهانهم عند الأزمات حاضرة تسعفهم بما ينبغى ، مهما يتحرج الأمر ، وتزمجر الصواعق. ونفوسهم عند الظفر قارة ، مهما يكن الغنم ، ويبطر النصر .. لم يطمعوا فى حياة خالية من الألم فتروعهم الشدائد ، أو تهدهم المصاعب ، بل يواجهون الحياة كما هى مزيجا من أحزان ومباهج ، ومتع تحفها شدائد ، وسعادة يناوشها الشقاء والعناد .. يتقبلون هذه ، ويتوقعون تلك ، فلا ينظرون لغد ، نظرة منهار يائس ، يعين على الهزيمة بتمثل الهزيمة مقبلة ، بل ينظرون بعين مستبشر هادىء مقتاد للظروف ، متحكم فى الحياة ، يتشوف لغد أفضل ، مهما يكن ظلام اليوم حالكا ، وأعاصيره هوجاء ، ورعوده قاصفة . وتلك القوى الخلقية ، يجمعها إن شئت وشاء معك الأخلاقيون[1] كلمتان خفيفتان : الشجاعة والتفاؤل . وتنثرهما إن شئت ، صفحات بل فصول ... خليقتان يستعد بهما القادة للوقوف فى مركزهم الدقيق الخطر يلفتون بأعمالهم وحركاتهم

---

(١) ابن مسكوية تهذيب الأخلاق ص ١٦/١٧ على هامش «أدب الدنيا والدين» .

فتتنبه الجموع ، وتقوم بأعمال واسعة المجال ، عنيفة الأثر ، مقررة للمصير ، ليس باعثها الفعال ، إلا شمائل القادة ..

وضع الهدى القرآنى قادته الرسل فى أممهم ، ذلك الوضع الدقيق ، وأجراهم على تلك السنة الكونية ، وأسس لذلك أساسا متينا عريضاً فلقد أجرى القرآن الأمر ، على خلاف ماجرى عليه غيره إذ قرر بشرية الرسل ، وأصر عليها ذلك الإصرار الذى مضى حديثى إليكم عنه ، فأكسب الحياة بذلك ما أكسبها من كبار المزايا على حين سجل على الناس ، تلك المماثلة الكاملة ، والمشابهة التامة ، لئلا تكون لهم حجة بعد ذلك فى أن يدعوا التمثل بالرسل والمحاكاة لهم حين تلفتهم وتنبههم أعمال الرسل الحكيمة وتصرفاتهم الرشيدة ... ثم أضاف إلى ذلك ، مشاركة هؤلاء القادة الرسل لقومهم مشاركة كاملة ، على مامضى من بيان .. وبهذه المشاركة يزداد التفات الناس كلما نبهتهم أعمال الرسل ، وتتحقق المحاكاة المسرعة وإذا ماوضع القرآن تلك الأسس الوثيقة كلها للفت والمحاكاة ، بين الرسل وأفراد أممهم ، فقد حق له أن يقول : [قد كانت لكم أُسوَةٌ حسنةٌ فى إبراهيم والذين معه ، إذ قالوا لقومهم إنا بُرَءَآءُ منكم ومما تعبُدُون من دون الله].ويقول : [لقد كان لكم فى رسول الله أسوةٌ حسنةٌ لمن كان يرجوالله واليومَ الآخر وذكرَ الله كثيراً] ، [لقد كان لكم فيهم أُسوَةٌ حَسَنةٌ لمن كان يرجو الله واليومَ الآخر ومن يتوَلَّ فإن الله هو الغَنِيُّ الحميد] ، [أولئك الذين هدى الله فبهداهُم اقْتَدِه] وفى الحق أنه ما من قدوة خير من قائد قدمت له المماثلة التامة بجنده ، وتحققت فيه المشاركة الوجدانية

الـكاملة لقومه ، تحققها فى أولئك الرسل صلوات الله عليهم ، كما وصفها فيهم القرآن .

إذا ما أقام القرآن رسله القادة ، بين أممهم هـــذا المقام ، فقد استكمل شمائلهم ما شاء الله أن تستكمل شمائل إنسانية خيرة صالحة ، وأقر فى نفوسهم من الشجاعة ، ما احتملت نفس متسامية ، وذلك حينما جعلهم يرمون بيد الله عن قوس القدرة ، وقال لأحدهم : [وما رميتَ إذ رميتَ ، ولـكن الله رمى وليبلى المؤمنين منه بلاء حسنا ، إن الله سميع عليم] ولقد ثبت قلوبهم بثقة متفائلة لا تيأس ، إذ كتب الغلبة له ولهم فقال : [كتب اللهُ لأغْلِبَنَّ أنا ورُسلى إنَّ اللهَ قوىٌّ عزيزٌ] وإنى لأشعر ، ويشعر مستمعى الـكرام معى بالغنى عن التماس مظاهر الشجاعة المتفائلة فى القرآن وحديثه عن قادته الرسل ، أشعر وتشعرون بذلك بعد الذى أسلفت قبل الآن ، من أن هذا القرآن بخبرته النفسية قد أجرى أمر هؤلاء القادة على حقيقة الفطرة النبيلة ، التى يلسى بها القادة العظماء ، غريزة المحافظة على ذواتهم فى سبيل رسالاتهم الـكريمة ، ويمنون بأن يكونوا ضحايا أهدافهم ، ولما أقر القرآن أمرهم على هذا ، أمرهم بأن يقاتلوا ولو تركوا وحدهم ، وتخلى الجميع عنهم ، وقال فى خطاب الرسول عليه السلام : [فقاتل فى سبيل الله لا تـكلَّف إلا نفسَّك وحرِّضْ المؤمنين] فأى شجاعة وراء ذلك ؟ وأى ثقة أقوى من ذلك !! وأى تفاؤل !!

أيها المؤمنون بحقهم فى الحياة . . . لئن اكتفينا بهذا فى شجاعة القادة الرسل ، فإنى لأجد الحاجة ماسة إلى أن أتحدث عن شجاعة القرآن

نفسه ، نعم عن شجاعة القرآن ، ولا غرابة في هذا ، فإن النفس حينما تشرف على تلك الآفاق السامية من قوله : [فقاتل في سبيل الله ولا تكلّفُ إلا نفسَك] لا يلبث أن يحجب أنوار تلك الآفاق ، صنيع غريب نحو آية أخرى فيه إذ يقول : [يأيها الذين آمنوا عليكم أنفُسَكم لا يَضِرْكُم من ضلَّ إذا اهتديْتم] فحينما تقرأ الآية الأولى عظمة الفرد النفسية ، وغيرته الاجتماعية ، وترده بنفسه وحده ، محوراً للكون وقطبا للوجود ، ومدارا للدنيا؛ إذا بالآية الثانية [عليكم أنفسكم .. ترده عند قوم فرديا أنانيا ، خائفا معتزلا قانعا بالسلامة ، غانما الإياب .. نعم فإني لأذكر — ولعل مستمعي الكرام — يذكرون ، والذكرى مريرة أن قوما يمتطون الدين إلى الدنيا ، قد طلب إليهم يوماً ، أن يمهدوا لأهل الحكم ظهر الدين حين اشتجر الخلاف ، فخرجوا ينادون الناس باسم الإسلام ، أن يعكفوا على أنفسهم وينظروا في مصالحهم ، ولا يبسطون يد الجماعة ، ولا يدفعون عن أمتهم شراً ، وحسبهم أن يسلموا وتتوافر منافعهم ، وتوج أولئك القوم نداءهم بتلك الآية : [يأيها الذين آمنوا عليكم أنفسُكم لا يَضِرُكم من ضلَّ إذا اهتديتم] فهل حقاً دعا القرآن إلى هذا التخلي ؟ وهل نزل عن شجاعته الباهرة ، التي تقاتل ولو تخلى الناس ولا تكلف إلا نفسها ؟ ذلك ما أعنيه ، إذ أجد الحاجة إلى الحديث عن شجاعة القرآن نفسه ، وعن مدى هذه الشجاعة ! !

ما أنكر أنه حين عصف ظلم الفردية ، وعناد العصبية التي احتكمت في الدول الإسلامية ، قد أورد المفسرون قديما حول هذه الآية أقوالا ،

فى إعفاء الآمر بالمعروف ، من تبعة هذا الأمر وإحلال الناهى عن المنكر من التعرض للأذى ، إلى آخر ما أورد من ذلك ، وحتى عند المحدثين من المفسرين [1] ، لم يترك القول فى هذه الآية ، دون إشارة إلى هذا المعنى وبيان لذلك الحكم فى الإعفاء والتخلص من مواجهة الشدائد .. ما أنكر أن هذا قد كان ، ولكن أين الأساس الأول الذى يقررونه ، من أن القرآن يفسر أول ما يفسر بالقرآن ، وبعضه يفسر بعضا ؟ وأين مالا بد منه ، من فهم الوحدة الضرورية لكتاب واحد ؟ هل ذهب ذلك كله ، واختلف معنى الآيتين ؟ لا أحسب شيئاً من ذلك قد كان ، فقد قال فى الآية الأولى كما فهم المفسرون أنفسهم ، « باشر القتال بنفسك ، ومن نكل عنه فلا عليك منه [2] ، أى أن عليه نفسه لا يضره من نكل عن القتال وتأخر إذا قاتل هو ، وهذا هو بنفسه فى الآية الثانية ، عليكم أنفسكم ما يضركم من ضل إذا اهتديتم . . ونظرة إلى سياق هذه الآية الثانية ، تبدى هذا المعنى جليا متعينا ، فقد نهى قبلها عن الانخداع بكثرة الباطل « وليتق أولو الألباب والعقول لعلهم يفلحون » . ثم نهى عن احترام مفتريات قديمة ، وأن يترك ما أنزل الله إلى ما وجد عليه الآباء ، ولو كان آباؤهم لا يعلمون شيئا ولا يهتدون . ثم أمر الفرد الصالح بعد هذا كله بأن ينهض بنفسه فى طلب الحق ، ولا عليه أن يكون

---

(١) تفسير المنار ٧ : ٢١٤ .

(٢) الكشاف — ١ : ٢٧٧ بالمعنى لا باللفظ ، وتفسير المنار ٥ : ٣٠٥ بلفظه تقريبا .

الخبيث كثرة ، أو يكون الآباء على ما كانوا عليه من قديم مقرر لا أصل له ... وهو سياق يتجلى فيه المراد ، من طلب النضال في سبيل الحق ، ولا على الفرد أن يكون ما حوله غير هذا ؟ فهو في شجاعته المادية يقاتل عن الحق ولو خلي وحده ، وهو في شجاعته المعنوية يطلب الحق ، ولو ضل جميع من حوله ، وهي هي روح القرآن الشجاعة الباسلة ، هي هي روحه الاجتماعية العاملة البعيدة أشد البعد عن الأنانية أو التخاذل أو المصلحية الحقيرة ، هي هي روح القرآن الشجاعة التي أحست الفطر السليمة ميلها إلى المخاطرة ، وسألت : عن الرجل يلقى المائة من العدو فيقاتل ، أفيكون ممن قال الله فيه [ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة] فأجيبوا ممن فهم تلك الروح النبيلة ، أن لا ، فقد قال الله لنبيه « فقاتل في سبيل الله لا تكلف إلا نفسك » . هي هي روح القرآن الشجاعة ، تنسى القادة أنفسهم ، وتشترى من الجند أنفسهم [إن الله اشترى من المؤمنين أنفسَهُم وأموالَهم بأنَّ لهم الجنةَ يقاتِلون في سبيلِ الله فيَقْتُلون ويُقْتَلون ، وعداً عليهم حقاً في التوراةِ والإنجيل والقرآنِ ، ومن أوفىَ بعهده من الله فاستبشِروا ببيعِكمُ الذي بايعتُم به ، وذلك هو الفوزُ العظيم] أفتراه بعد هذا البيع يدعوهم لتخاذل واعتزال ؟ ؟ لا ، ثم لا ، .. من هذه الشجاعة القرآنية تكون شجاعة القادة الذين اكتملت شمائلهم وسلمت نفوسهم .

يا شرق .. هذا هدى القرآن ، عن شمائل قادتك ، الذين ألبسوك في الماضي تاج عزتك ، وأخضعوا الحياة لسيطرتك .. واليوم والحاضر

يتغير ، والمســـــتقبل يتقرر ، لن تلوذ إلا بمثلهم ، من شجعان مقدمين متيمنين ، يبيعون أنفسهم مستبشرين .

وياشباب .. مهما يكن من أمر اليوم ، فأنت صاحب الغد ، وعليك عبئه ، ولن يحميه لك إلا شجاعة من تلك التي بنت لقومك ما ضيهم وأنت لها المرجى .

تبعات القادة

[إن هذه أمتكم أمةً واحدة] ... [من قتل نفساً بغير نفسٍ أو فسادٍ فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ؛ ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا . .] هذا حديث ، يتصل بسياق من القول ، أعتقد أن مستمعى الكرام يذكرونه ... فأنما كان الحديث من هدى القرآن ، عن القادة الرسل : سيامم وشمائلهم . حتى بلغ إلى أن أولئك القادة ، ليسوا من الجبابرة ... والدنيا تعانى من الجبروت والطغيان ماتعانى ؛ فرصدنا لهذا الطغيان ، فى ألوانه المختلفة ، ما فى ذلك الهدى السماوى من قوة .. وعرضنا لمظاهره المختلفة ، وآخرها طغيان الحكم .. فكان هذا مجال النظر ، فى حكومة القرآن ، وبراءتها من ذلك الطغيان ، الذى يستند فى أقوى مايستند إليه ، على معانٍ ثيوقراطيّة مختلفة ؛ من بينها ، إلهيّة قوانين الحكم . وهى بسبيل من دعوة الدعاة ، فى مصر والشرق ، إلى الحكم بما أنزل الله .. وحين عرضنا لذلك كله ، امتد نفس القول فى الطغيان . وما ذلك إلا حين امتد رواقه ، وانبسطت على الدنيا منه ظلال خانقة . . لكشفها يصمد القادة ، ويلتمس الرجال ، ليلقوا واجباتهم ، ويحملوا تبعاتهم ، أمام قومهم .. وهذا ماتكمل به الآن ، تلك الأحاديث ، عن القادة الرسل ، بعد القول فى عزماتهم وشمائلهم ، على ماهدى إليه الذكر الحكيم .

أصحاب الإنسانية المكرمة : رأينا من خلائق أولئك القادة ، أصحاب الرسالات ، أنهم ذوو شخصيات فذة ، فطنة ، حكيمة ؛ تدفع من حولها ، وتنبههم إلى محاكاتها .. تلفهم بقومهم وحدة نفسية ؛ تثير فيهم مشاركة وجدانية ، تدنيهم من القلوب ، وتحببهم إلى الأفئدة ، وتجعل فيهم صورة الأمل المرجى ، وقوة التغلب على كل مكروه .. فهم الذين لايسألون قومهم أجراً ، ولا يبتغون بعملهم مالا ، وإنما أجرهم عند أنفسهم أن يكونوا قرابين غاياتهم ، وضحايا رسالاتهم ، يستشهدون من أجلها ، ويفنون فى سبيلها ؛ يقاتلون إذا انكشف الناس جميعا ، لايكلفون إلا أنفسهم .. وفى هذا وما إليه من شمائلهم التى وصفنا مظهر الرابطة الوثقى ، للقادة بحياة قومهم ، وعلى أساس هذا الارتباط تستبين مسئولياتهم وتتحدد تبعاتهم .

أصحاب الآدمية المكرمة : إن وحدة المجتمع ، وصلة الفرد بها ، وقوة هذه الوحدة ، واعتماد حياة الفرد عليها ، مما طال الكلام فيه قديما وحديثا .. فمنذ جنح الإنسان إلى غايات عليا ، وآمال كريمة فى حياته ، أدرك هذه الوحدة ، وتحدث عنها ، وعنى بها ، المفكرون منه ، والمصلحون فيه ، على اختلاف الصور ، التى يظهر بها المصلحون فى الأمم ، من دينية ، إلى سياسة ، أو فلسفية اجتماعية أو غيرها ... وما خطوات الرقى الإنسانى التى خطاها الناس ، نحو التقدم ، إلا دنو من تأكيد هذه الوحدة الاجتماعية ، وقوة الشعور بها ، وتوسيع دائرتها .. ولو رجعنا إلى أنفسنا لتبين لنا فى جلاء ، إن ليس الذى يعانيه الشرق من النقص ،

إلا لضعف الشعور بهاتيكم الوحدة ، وليس الذى يرجوه هداته وحداته ، بأكثر من رسوخ الشعور بها . . ومن هنا طال الوقوف عندها ويطول أحياء لهذا الإحساس الاجتماعى ، وحملاً على هذا الأيمان الحيوى ، أن تعمر قلوب أهله ، فينبعث عنه كل خير لهم ، ويمتاز قادته ، بتلك النوازع الاجتماعية المترفعة ، التى لمحناها فى سمات القادة الرسل وشمائلهم ، واحتمالهم فى نبل ، تبعات رسالاتهم ، واستقتالهم من أجل أهدافهم ، مهما تتخلّ الدنيا عنهم ..

أصحاب الإنسانية المكرمة : هل لكم أن تقدروا أن هذا الإنسان لايتصور انفصاله مطلقا ، عن الجمعية التى يحيا بها ، وأنه لايستطيع — مهما تكن نزعاته الفردية — أن يعمل أبدا ، أى عمل من الأعمال ، إلا وعائدته على هذه الجمعية ، فلا له مفر — مهما يرد أن يفعل لنفسه — من أن يصل فعله بقومه ، فهو يعمل أبداً لجماعته ، أو على جماعته ، يفيدها وينفعها معه ، أو يؤذيها ويضرها ، فيؤذى ويضر بإيذائها .. لأن بينهما من الاتصال الوثيق ، ما يستحيل معه أن يجرى الأمر على غير هذا الوضع ، مهما يتوهم أو يتخيل أنه يغيره .. وأما من يبذل عنايته كلها ، فى سبيل أعمال فردية ، مدارها وجوده الخاص ، تتصل أعماله هذه كل الاتصال بجماعته من نواحى متعددة .. تتصل بها ، من حيث أنه لايمان على تلك الأعمال الفردية الخاصة ، إلا إذا كانت حال الجماعة من حوله مهيئة لها مساعدة عليها ، وإذا لم تكن حالها كذلك ، فلن يستطيع تحقيق غاياته الفردية ، فلن يمكنه أبداً ، أن يصح ويسلم ، إذا كان من حوله مرضى ، يرسلون

الجراثيم ، وينفثون السموم ، ولن يمكنه أبداً أن يترفه وينعم ، إذا كان من حوله بائسين ، ينثرون القذر ، وينشرون الأوساخ .. وهل تراه يستطيع العزلة الهانئة الوادعة ، الناعمة ، إذا كان من حوله ، لا يعينون عليها ، ولا يهيئونها ؟ ! فهل ترى من يقيم قصراً فخما مترفا ، فى قرية من قرانا المصرية ، على حالها الراهنة ، يظفر فيه بهذه الوحدة المنفردة ، المطمئنة ، وأهل القرية حوله ، على ما نعرف من أمرهم ، مرضا ، وجهلا ، وفقراً ، وتأخراً !! .. أدنى أثر للجماعة ، أن تجعل الفرد يتكلف الباهظ المرهق ، فى سبيل شيء يظفر به من يعيش فى جماعة راقية ، بأيسر كلفة ، وأقل مشقة !! وكذلك يتصل العمل الفردى البحت ، الشخصى المحض ، بحالة الجماعة دائما .. ثم تتصل ثماره الفردية الشخصية ، بجماعته مباشرة ، فإن صح كفاها مرضه وعدواه ، وأن سلم ورقى كفاها خطاه وتأخره ، وهكذا .. ومن يفر من الجماعة بأن يلجأ إلى العزله والوحدة يظل — مهما يفعل — متأثراً بالجماعة مؤثرا فيها .. فإن لحق بشعاف الجبال ، ولاذ بأطراف البوادى فقد عاد ، إلى حيوانيـة ، حالت بينه وبين إنسانية سامية متفاهمة حكيمة ، بالتعلم والتعليم .. وأن اكتفى من العزلة ، بأن يعيش على هامش حياة الجماعة ، فهو متأثر بحالها ، عاجز عن توجيهها ، قد حرمها خيره ، وحرم ثمرة المشاركة القوية المؤثرة فى أنهاضها إلى ما يرضيه ويسعد به . . . فكذلك لا يستطيع الفرد أن يعتزل الجماعة ، عزلة مقبولة مجدية ، إلا إذا أعانته الجماعة نفسها على هذه العزلة ، ورضيتها له ، بعد ما أدى حقها ، وأتم واجبه ، فعرفت له ماضيه وأسعفته على هدأة منفردة مرتاحة وإلا

فلا ... فالفرد على حال ، كل يؤثر فى الجماعة بنيته وقلبه ، وجوارحه وعمله ، ويتأثر بالخفى الدقيق ، من أمر الجماعة ، كما يتأثر بالظاهر الجليل من شأنها ، لا مفر له من ذلك ولا مخلص . . وكل ما عـداه وهم ضال .

أصحاب الكرامة الإنسانية : تلكم هى الرابطة بين الفرد ومجتمعه ؛ تدركها فى وضوح ، وتحس بها من قرب ، أفراد الجماعـــة الراقية ، ويخفى الشعور بها ، ويضطرب التقدير لها ، فى الجماعة المنحطة .. فمبلغ الشعور الواضح القوى بها ، هو السبيل الوحيدة ، لتحصيل خير الفرد ، وتهيئة مرافقه المادية العملية ، كما أنه الخطة المثلى ، لإعداد العالم المعنوى والبيئة العقليّة الراقية ، التى يستطيع أن يحيا وينتعش فيها ، إنسان مفكر نبيل .. ولا مقياس لحيوية أمة ظافرة مناضلة ، ولا عامل لنصرها إن حاربت ، ونجاحها إن سالمت ، إلا درجة الشعور بالوحدة الاجتماعية بين أهلها .. فهو الشعور الذى كان أساس حياة الجماعة فى صورها المختلفة ، منذ كانت تلك الجماعة ، قبيلة ، أو قبائل متحالفة ، يخلص أفرادها لوحدتهم ، إلى أن صارت شعباً متماسكا ، ينتظم قبائل تنتمى إلى وحدة عليا . ثم بعد ما صارت أمة لها كيانها المتميز ، وطابعها الخاص .. وإنك لتدرس ظواهر الحياة الإنسانية المختلفة من فنية ، أو علمية ، أو اعتقادية ، أو عملية أو ما شئت أن تكون فتجد رقيها مسايراً لتدرج هذا الشعور الاجتماعى وترقيه .. وإن اخترناهنا مثلا فلنختر الشعور الدينى نفسه من بين ظواهر الحياة الإنسانية ، فسنرى تدرجه فى الترقى والشمول ، مسايرا لهذا الشعور الاجتماعى وسعة أفقه فإن اتجهت الدعوات الدينية حينا ، إلى كراهية الدنيا ، والحث

على اعتزال الحياة ، والتخلص من المشاركة فيها ، بخلوة منفردة ، أو تبتل مترهب ، أو زهد منقطع فكانت بذلك حربا على الجماعة ، فإن هذا الاتجاه البعيد عن الشعور بالتوحد الاجتماعي لم يلبث أن تضاءل وخفت ، وغلب على أمره ، وتطورت الفكرة الراهبة أو الزاهدة ، تطورا جعلها هي نفسها ، سبيلا لإصلاح الحياة المتجسمة ، ونفع الجماعة المتماسكة ، إذ صار الترهب والخلوة سبيلا إلى إصلاح نفوس الأفراد ، وتخليصها من شرور الجماعة غير الوافية ، ليندفع أولئك الرهبان أنفسهم إلى إصلاح المجتمع ، وإرشاد الأمة ، وترقية حياتها الجماعية ، بالتدخل في شئونها تدخلا ، جعل المترهبين يشتركون بأنفسهم في الحكم ، والتدبير السياسي ، اشتراكاً مباشراً . ثم غلبت وسادت الفكرة الدينية الاجتماعية ، الدافعة عن الوحدة الجماعية المؤيدة لها ... وكذلك صدق ماقيل دائماً : من أن عمل الفرد كله ، إنما هو في الجماعة ، أن لها ، وأن عليها .. ولن يكون غير ذلك أبداً .

أصحاب الأدمية المكرمة : هذه الوحدة هي ما أحسه من هدى القرآن ، في وضوح وجلاء ، إذا تلوت قوله : [أن هذه أمتكم أمة واحدة] ... وهي التي يشف عنها الكثير من نظمه الدقيق ، وتأليفه المعجز ، حين يضيف إلى ضمير الجميع ما للفرد من ملك أو ما يجترحه من عمل ، ناظرا إلى أنه هو وجماعته ، ليسا ألا شيئا واحدا ، فيقول مثلا : [ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ، وتدلوا بها إلى الحكام]. فهو يسميها أموالهم مع أن الآكل إنما يأكل مال غيره . كما قال في بقية الآية [لتأكلوا فريقاً من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون] . ومن شواهد هذا أيضاً مثل قوله : [يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا

أموالكم بينكم بالباطل الا أن تكون تجارة عن تراضٍ منكم] . يضيف الأموال اليهم جميعا [1] كما رأينا . ويزيد اللفت القوى إلى هذه الوحدة بقوله فى ختام الآية : [ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيما] ناهيا بذلك عن الانتحار وعن قتل الآخرين أيضا لأنه عنده قتل لنفس القاتل . وإذا كنا نستنتج لفت القرآن لهذه الوحدة من أمثال هذه الآيات وغيرها استنتاجا فلقد جهر بها قوية مؤيدة بل جهر بأنها الغاية التى قصدت إليها الرسالات السموية ، والاصلاح الدينى ، منذ القدم . ولكن الناس أسرفوا على أنفسهم وقعد بهم عجزهم ، عن التسامى إليها ، وذلك فى قوله ، بعد قصة ابنى آدم ، وقتل أحدهما أخاه : [من أجل ذلك كتبنا على بنى إسرئيل ، أنه من قتل نفسا بغير نفسٍ أو فسادٍ فى الأرض ، فكأنما قتل الناس جميعا ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا ، ولقد جاءتهم رسلنا بالبينات ثم أن كثيرا منهم بعد ذلك فى الأرض لمسرفون]. ولا أجهر من هذا القول فى الوحده الاجتماعية الإنسانية ولا أقوى من قتل نفسا فكأنما قتل الناس جميعا ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا . وليس وراء ذلك مطلب ، من سمو النظرة الانسانية الشامله العامة .

أصحاب الإنسانية : من قدر هذه الوحدة قدرها حكم على العمل بالحسن والخير أو القبح والشر ناظر إلى أثره فى المجتمع ، وكثرة من يتعدى

---

(١) لم يتنبه المفسرون الأقدمون الى شعور القرآن بهذه الوحدة ، ولكن لفت إليها تفسير المنار جـ ٥ ص ٣٩ ، ٤٣ و جـ ٦ : ٣٤٩

إليهم تأثيره ؟ لقيمة الشيء الواحد ، والفعل الواحد تختلف باختلاف تأثر الجماعة به وضيق هذا التأثر وسعته ، ومن هنا كانت المزية أو اللائمة على الفعل الواحد تختلف باختلاف من يصدر منهم ، لأن لأحدهم تأثيرا بعيدا على الناس وللآخر تأثير أيسر من الأول وأهون ، فحيث كان الشخص أسوة يقتدى به ، ومثلا مرموقا ، يكون فعله ، أشد وقعا على من حوله ، فيصيب الجماعة مع أثر فعله الفردى ، أثر عدواه لغيره على مدى ما تصل إليه هذه العدوى ؛ وكذلك كان من القولات الحكيمة السائرة ، فى تزيين لفظى صادق ، قولهم زلة العالم تفسد العالم ، لأنها زلة يزل بها كثيرون ، ويستحيل بها الخطأ ويقدم عليه كثيرون فيزداد شرها .

أصحاب الإنسانية الكريمة : إنما نظرنا إلى هذه الوحدة الاجتماعية ، ثم إلى تقدير خطر أعمال الناس عليها ، لندرك من قرب ، الأساس الذى تقدر به تبعات القادة أمام جموعهم ، ومسئوليتهم لدى أقوامهم ؛ فهم كما رأينا ، مثار التنبيه واللفت ومصدر المحاكاة والتمثل ؛ وهم القريبون إلى القلوب الأثيرون فى النفوس ، فالبلوى بفعلهم أعم ، والعدوى أكثر ومن هنا يكون فعلهم مصدر خير كثير ، إن أصابوا وأحسنوا ؛ كما يكون منشأ ضرر وفساد كبير ، إن أساءوا وأخطأوا .. فعليهم إثم الخطأ ، وإثم من تردى فيه ، متأثرا بفعلهم ، متابعا لهم .. كما أن لهم فى حساب التاريخ ، حين يثبتون ويوفقون ، فضل إحياء الجماعة ، ومجد إنهاضها ، ونخر نصرها ، مثلما كانت عليهم تبعة ترديها . يحملون منه وزرهم وأوزارا على أوزارهم .. عزما بغنم ؛ وعدلا اجتماعيا ، لا محاباة فيه ، ولا هوادة ... وكذلك كان

تقدير الزمن لهم . وقسوة التاريخ عليهم ؛ بقدر ما كانت تزكيته وتمجيده .. واحدة بواحدة ...

ذلك هو أساس التقدير الاجتماعي لتبعات القادة . والحساب الخلقي لمسئولياتهم ؛ وسنعرف هدى القرآن في تقدير هذه التبعات . وتحديد تلك المسئوليات ... وفق الله هذا الشرق ورجاله إلى الشعور بتلك المسئولية الكبرى .

تبعات القادة

(٢)

[إنْ تُقرِضوا الله قرضاً حسَناً يضاعفْه لكم ، ويغفر لكم ، والله شكور حليم . .] بدأ النظر فى تبعات القادة ، من حيث يتصل الفرد بجماعته ؛ فوجدنا هذه الصلة وثيقة قوية ، تنتهى إلى وحدة بينهما لا تنفصم .. وهى وحدة أيدها الهدى القرآنى منذ أزمان بعيدة حين كان الناس ، فى مستوى من العقل والشعور ، لايسمو إلى إدراك هاتيكم الوحدة ، من قرب .. كما قرر القرآن أن هذه الوحدة الجماعية غاية من الغايات التى عملت لتحقيقها الدعوات السماوية منذ القدم ، وإن أسرف الناس فى الأرض ، ولم يقدروا هذه الصلة قدرها ، وكذلك قرر القرآن قوة هذه الوحدة تقريراً سامياً ، حيث جعل من قتل نفساً فكأنما قتل الناس جميعاً ، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً ... وإذا ما كانت رابطة الفرد بقومه ، من القوة على ما وصفنا ، فقد وجب أن تقدر أعمال الفرد ، ويحكم عليها ، بمقدار ما لها من الأثر ، فى حياة مجتمعه . . ومن هنا كان تقدير تبعات القادة ، وتحديد مسئولياتهم أمام جماعتهم ، قائماً على هذا الأساس ، لأنهم أبرز اتصالا وأقوى ارتباطا بهم ، فأعمالهم توزن بما لها من تأثير على من حولهم ، ويحملون تبعة هذه الآثار كلها ، إن خيراً فخيراً ، وإن شراً فشراً .. وعلى هذا الأصل فى محاسبتهم ، جرى التاريخ ، وأصدر أحكامه عليهم ، فاحتسب لهم مجد إحياء أممهم ، وفخر إنهاضها ،

وشرف نصرها ، كما حملهم إثم هزيمتها ، وعار تأخرها ، عدلا اجتماعيا ، ولمواباً خلقيا ... ونريد الآن لنسمع هدى القرآن فى هذا الأصل ، وكيف يقدره ؟ وهل أقره ودعا إليه فى تحميل المسئوليات ؟ وكيف عرضه عرضاً دينيا ؟ وكيف تنتفع حياتنا اليوم بذلك كله ؟

إن الناظر فى حديث القرآن عن التبعة والجزاء ، ليجد من صنيع القرآن فى هذا ، تقريره الحساب والجزاء فى حديثه المسهب عن يوم الدين ، يوم الجزاء ، يوم الحساب ، يوم القيامة ؛ وليسمع من وصف إلهه ، أنه [سريع الحساب] وهو أسرع الحاسبين] [وكفى بالله حسيبا] . يقول للرسول ﷺ : .[إنما عليك البلاغ ، وعلينا الحساب] .. وحسابه دقيق شامل لا يفلت شيئاً ، ولا يخطئه شىء : [ونضع الموازين القسط ليوم القيامة ، فلا تُظلم نفس شيئا ؛ وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين] ، [يؤمئذ يصدر الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم ، فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره] .. وبهذا ينتظر الناس جزاء حتما ، لا مفر منه ولا مهرب ، ولا هوادة فيه ولا تهاون . . ولن يتيسر الأفلات منه ، كما يقع هذا ضعفا أو خطأ ، فى هذه الحياة الدنيا ، ويتكرر كثيراً ؛ حين يخدع الناس القانون وتنظيمه ، أو يغافلون السلطة ، ويضللون القائمين عليها، المنفذين أوامرها ، أوحين يسيء أولئك القوم ، إلى واجبهم فيتهاونون أو يحابون .. وذلك وما ماثله ، من تفلت وهرب ، أو استثناء ، هو من فرق مابين القانون الألهى ، الذى يضعه ويطبقه وينفذه ، حاكم ، عالم ، حكيم ، لا تدركه الأبصار ، وهو يدرك

الأبصار ، وهو اللطيف الخبير ، له مافى السموات ، وما فى الأرض وما بينهما ، وما تحت الثرى .. وبين القانون الوضعى ، الذى يضعه ويطبقه وينفذه ، أشخاص محـدودو الطاقة والمقدرة ، محدودو الشعور بالحق والعدل ، يسهل مع ذلك خداعهم ، ويمكن الإفلات من سلطانهم . . .

وإن كان القرآن فى حديثه عن المجازاة الحقة والحساب الدقيق ، وعدم التفريط فى صغيرة أو كبيرة ، يبين ذلك ليحملهم على مثله ، تحقيقاً لخيرهم .

وهذا الحساب الآلهى الدقيق ، يجازى فيـــه كل إنسان — كما يقول القرآن — بعمله ، فيؤخذ بما اجترح ، وعليه تعود نتائج ما صنع : [كل امرىء بمـا كسب رهين] [كل نفس بما كسبت رهينة] [لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ، لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت] [اليوم تجزى كل نفس ما كسبت ، لا ظلم اليوم] [فـكيف إذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه ، ووفيت كل نفس ما كسبت] وعلى غرار هذا يتكرر قوله ، أن كل إنسان إنما هو مدين بعمله هو ، مأخوذ به ، محاسب عليه ، عائدته على نفسه وشخصه فيقول مثلا : [قل لا تسألون عما أجرمنا ، ولا تسأل عما تعملون] [ومن يكسب إثما فإنما يكسبه على نفسه] [ولا تـكسب كلُّ نفس إلا عليها] وما يلبث أن ينص فى صراحة ووضوح ، على أنه لا يؤخذ أحد بجرم أحد ، ولا يسأل شخص عن ذنب شخص [قل أغير الله أبغى ربا ، وهو رب كل شىء] [ولا تـكسب كل نفس الا عليها ، ولا تزر وازرة وزر أخرى] أى لا تحمل نفس ذنب نفس أخرى .. [من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ، ومن ضل فإنما يضل عليها . ولا تزر وازرة وزر أخرى]

وحين يمثل آثار الذنوب ، بآثار الحمل الثقيل على حامله ، من حيث أنه ينوء به ، ويبهظه ويؤخره ويسوء به حاله يتحدث عن حمل المذنب اثقال ذنبه وحده فيقول : [ولا تزر وازرة وزر أخرى ، وإن تدع مثقلة إلى حملها لايحمل منه شيء ولوكان ذا قربى] [قدخسر الذين كذبوا بلقاء الله ، حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة قالوا ياحسرتنا على ما فرطنا فيها ، وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم ، ألا ساء ما يزرون] وإذا كان بعض المفترين يخدعون الناس ، بوعدهم أنهم سيحملون خطاياهم ، إذا ما اتبعوهم ، فأنه يكذبهم فى دلك ، ويبطل ادعاءهم ، فى مثل قوله : [وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا ، ولنحمل خطاياكم ، وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء ، أنهم لكاذبون] وهويقررأن ذهاب كل شخص بآثامه وعود ذنوبه على نفسه هو دون غيره ، وعدم احتماله ذنوب الآخرين ، إنما هو أصل مقرر فى الديانات السابقة ، كما يقول : [أم لم ينبأ بما فى صحف موسى وإبراهيم الذى وفى ، ألا تزر وازرة وزر أخرى ، وأن ليس للإنسان إلا ماسعى وأن سعيه سوف يرى ثم يجزاه الجزاء الأوفى] . وهكذا اطرد الناموس الدينى ، فى صحف إبراهيم وموسى إلى القرآن .

إذا ما تحدث القرآن عن جزاء عادل مستوف لكل شيء ، دقيق متتبع كما سمعنا ، فإن حديثه عن آثار الذنوب ، على هذا النحو الذى تلوناه من آياته ، قد يؤذن بأنه ينظر فى الأمر نظرة فردية ، ويجرى أمر الحساب فى الآخرة على غير هذا الذى رأيناه ، من تقدير علاقة الفرد بجماعته ، وأخذه بأثر ذنبه فى قومه ؟ فهل هذا هو هدى القرآن فى تبعات

القادة ؟ وسبيله فى مؤاخذتهم ؟ ؟ إن القرآن حين يقرر أنه لا تكسب كل نفس إلا عليها، إنما يمضى بذلك فى تقرير أصل المسئولية ، وأنه لا محيص عنها لمكتسب : وحين يقرر أن لا تزر وازرة وزر أخرى ، وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء ، ولو كان ذا قربى ، أنما يثبت التبعة على الوازرين وينفى أن يكون لهم مجال للتخفف منها ، مهما تكن محاولتهم فى ذلك ومهما يلتمسوا من معونة للأقربين أو الأدنين .. وهذا سياق له مجاله ، وغرض له مناسبته ، ولكن القرآن فى غير هذا السياق والمجال ، يعرض لبيان آثار الأوزار على الآخرين ، واحتلالهم بها ، ويحمل المضلين أوزار من أضلوهم ، وفى مكان واحد ، نجد التعرض للغرضين معاً ، كما فى الآية التى تلونا سابقا : [وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم] والذين كفروا فى هذه الآية هم كما قال المفسرون المتقدمون أنفسهم [1]. « القادة من الكفار » قالوا لمن آمن ، اتركوا دينكم واتبعوا ديننا فى انكار البعث ، ووعدوهم مؤكدين ، أنه لا بعث ، فان عسى كان جزاء ومعاد ، فانا نتحمل عنكم الإثم .. فبين لهؤلاء الذين أضلوا بالوعد أن مضليهم كاذبون ، ولن يحملوا عنهم شيئاً : [وماهم بحاملين من خطاياهم من شيء ، إنهم لكاذبون] وعقب على ذلك فى المقام نفسه ببيان أن هؤلاء القادة من صناديد قريش ، سيحملون أوزار ضلالهم ، كما سيحملون معها أوزار إضلالهم لغيرهم ، فقال : [وليَحملُنَّ أثقالَهم

---

(١) الطبرى ٢٠ : ٨٦ ، ٨٧ — والنيسابورى — على هامشة ٢٠ .

وأثقالا مع أثقالهم ، وليُسألُنّ يومَ القيامة عمّا كانوا يفترون] فهم بحاملين من خطايا المخدوعين شيئاً يخفف عنهم الإثم ، وليحملن وزر الإضلال مع وزر الضلال ، حين يحمل الأتباع وزر ضلالهم فقط .. وفى النظم القرآنى ، من المواطن المختلفة دقائق تنم عن نواحى مؤاخذة الفريقين ، ومايحملون من وزر كقوله : [وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا أساطيرُ الأوّلين ، ليحملوا أوزارهم كاملةً يومَ القيامةِ ، ومن أوزار الذين يُضلونهم بغير علم ألا ساء ما يَزِرُون] فهذه الآية حديث عن المتصدين للإضلال والتنفير ، الذين يضعون أنفسهم موضع الدعوة والرياسة ؛ بينت الآية أنهم يحملون أوزارهم كاملة يوم القيامة ، ويحملون من أوزار الذين يضلونهم ، وزر الإضلال ، لأن المضل والضال شريكان ، هذا يضله ، وهذا يطاوعه على اضلاله ، فيتحملان الوزر [1] .. وهكذا يقرر القرآن مسئوليةِ الفرد كما يقرر فى الوقت نفسه ، أصل المبدأ الاجتماعى ، فى تقدير آثار الأفعال على الناس ، وتحميل أصحابها آثار أضرارهم بغيرهم ..

أيها المهتدون بهدى القرآن : لقد رأيتموه يحمل القادة تبعات أعمالهم فى جماعتهم ، ويقرر هذا ، كما يقرر المسئولية الفردية ، وأخذ كل نفس بما كسبت ؛ وأنه ليتناول هذا الأصل ، فى مسئولية القادة بالبيان الأكمل فيبين نصيبهم من العذاب ، ومقدار مسئوليتهم ، على ما أساءوا إلى غيرهم .. وأن هذا الهدى الحكيم ، الذى سمعناه يحمى الوحدة الاجتماعية

---

(١) الكشاف ١ : ٦٨٢

فى عصور جاهلة سحيقة ، تلك الحماية القوية ، التى سمعنا محكم عبارته فيها .
هو الذى يفيض حكمته ، على ذلك الغرض الجليل ويتابع حماية تلك الوحدة الخطيرة بتقديره أثار أخطاء القادة المتصدِّرين ، على أقوامهم ، وما يجرونه من شرورعلى أممهم ، فنسمعه يعرض غير مرة ، وفى سور مختلفة ، لبيان مآثم هذه الآثار ، وسيئات تلك الأضرار ، ويعرضها عرضه الفنى المعجز فى صورة تلاوم يجرى بين الضالين والمضلين حينا ، وحينا فى صورة استنجاز ومطالبة بالوعد الذى قدمه وأكده القادة المضلون ، وآونة فى صورة محاكمات تجريها العدالة الآلهية ، وتوقع فيها العقاب الرادع على أولئك الذين أساءوا إلى غيرهم حين كانوا فى موضع الصدارة والدلالة ، فأفسدوا شئون الناس بتأثيرهم عليهم ، كما قد تراه يتحدث بهذا إلى المؤمنين منبها لهم ، إلى أثر أفعالهم على اخوانهم . أو يتحدث مرة عن الكفار وفعلهم فيه ، مما يدعك تشعر بعناية القرآن الكبرى بهذا الجانب الاجتماعى من حياة الأمم ، فتشعر معه بدقة المركز الذى يشغله القادة بين جماعاتهم ، وترجو أن تدفعهم تلك العناية القرآنيـة إلى التقدير الصحيح والشعور الوافر بتبعاتهم أمام العدالة الإلهية ، والرقابة السماوية .

أيها المهتدون بهدى القرآن : إن الصور البيانية التى يعرض فيها القرآن فكرته الاجتماعية ، عن تحمل القادة تبعات أعظم فى خطئهم لسوء أثره على قومهم ، هى صور يجد صاحب الفن الأدبى فيها متعة نفسية كبرى . وما يزال يستشف فيها نواحى للدقة الخلابة ، وملامح منُ الحسن الأدبى الفاتن ، إلى مرامى من الحكمة البالغة ترد الجموع إلى صوابها

وتأخذ القادة فيهم ، بعدل مصلح . . وما نستطيع هنا الآن إلا أن نعرض في إيجاز ، بعض هذه الصور ، وهي صورة من الاعتراف الآسف للجماعة ، التي أساء إليها قادتها ، وأضلها أتباعهم ، وأفرادها يعترفون بذلك بعد فوات الأوان ، وعند اليأس الخانق ، اعترافاً لا يجديهم ، ثم يطلبون بعض التشفي من أئمة ضلالهم فيدعون عليهم دعاء إنما يجري به لسانهم عدلا آلهيا ، وصوابا في القضاء على المضلين المسيئين ، واستمع إلى قول القرآن : [إن الله لـعنَ الـكافرين وأعدَّ لهم سعيراً ، خالدين فيها أبداً ، لا يجدون وليًّا ولا نصيرا يومَ تُقلَّبُ وجوهُهم في النار ، يقولون ياليتنا أطعْنا الله وأطعنا الرسولا ، وقالوا ربنا إنا أطعْنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا ، ربنَّا آتِهمْ ضِعْفَين من العذاب ، والعنهم لَعْناً كبيراً .] إنه يصور عجز هؤلاء المغلوبين الفاقدين الولي والنصير ، وقد ذهبت كل محاولة لهم في سبيل التخلص ، حتى مايدفعون عن وجوههم ، وقد قضت الفطرة ، بأن ينفي المرء الأذى عن وجهه مااستطاع بجوارحه الأخرى ، فيقيه بيديه ، أو يطأطيء رأسه لئلا يصاب وجهه ، فإذا كانت وجوههم هي التي تقلبت في النار ، فقد فقدوا المقاومة في سائر ألوانها[1] وهم في هذه الحال اليائسة ، المهلكة يردون علة مصابهم ، ويذكرون من خطئهم ، الذي جنى عليهم ، إضلال قادتهم لهم ، وإطاعتهم إياهم [ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا]. ويتشفَّوْنَ بالدعاء عليهم.. [ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبيرا] عذبهم مثلي عذابنا ، وأخزهم خزيا كبيرا . وليس هذا

(١) الفخر الرازي ٦ : ٥٩٢ بتصرف يسير ، ابن كثير ٦ : ٦١٥

الدعاء تشفيا فحسب ، بل هو اعلان حكم العدالة ، الآلهية ، بلسان الأتباع الاخصاء المطيعين . ألا ترى أن القرآن فى مقام آخر ، يجعل هذين الضعفين من العذاب جزاء من يكون فى موضع القدوة ، ثم يخطىء ، فيقول مخاطباً نساء الرسول ﷺ : [يانساء النبي من يأتى منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين ، وكان ذلك على الله يسيرا] . فى الصورة السابقة جعل ضعفى العذاب دعوة المتبعين ، وهى التى جعلها فى قوله عقاب الخاطئين المتبعين . وفى الآية الأولى مع هذا كله ، تجسيم لخطأ التابعين المخدوعين ، إذ عرفوا تماماً عجز هؤلاء الكبراء وعدم غنائهم ، حتى أصدروا هم حكمهم عليهم ، فاعترفوا بخطئهم اعترافاً حاراً .. وكذلك كان أحد الفرسان من أصحاب على — رضه — يحذر أصحابه من التواكل والتخاذل فى القتال فيذكرهم بخطأ هؤلاء التابعين ويقول : يامعشر الأنصار لم أتريدون أن تقولوا لربنا إذا لقينا : ربنا إنا اطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا ، ربنا آتهن ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبيرا ..

ياهواة الفن القرآنى : إن لأسلوبه لوحدة متسقة يتبينها من يتتبع تعبيره ، عن أحوال القادة ومتبعيهم ، بالضعفين والضعف ، فيراعى غرضاً فنياً ثابتا ، فى التعبير عن فكرته المطردة ، فى جزاء القادة ومسئوليتهم .. أعان الله على تمثل هذا الفن القولى للاهتداء الصحيح بهذا الهدى القرآنى .

تبعات القادة

(٣)

[منْ ذا الذى يُقْرِضُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً فيضاعِفَه له أضعافاً كثيرة ، والله يَقْبِضُ و يَبْسط وإليه تُرْجعون] . رأينا أن القرآن يقرر المسئولية الفردية فى وضوح وجلاء . لايغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، ثم هو بهذا الوضوح وتلك الإحاطة نفسها ، يقرر المسئولية الاجتماعية ، على مثال ما يقرر الوحدة الاجتماعية ، فى قوة وسمو ، وبذلك يحمل القادة المتبعين آثار أعمالهم . التى يتبعهم فيها غيرهم ، ويتأثر الناس فيها بفعلهم . وإذا كانت لاتزر وازرة وزر أخرى ، وأن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شىء ولو كان ذا قربى ، فذلك تقرير للمسئولية ، وعدم الأفلات ، حين يثبت فى الوقت نفسه جزاء المضلين غيرهم بقوله : وليحملن أثقالهم ، وأثقالا مع أثقالهم ، وليسألن يوم القيامة عما كانوا يفترون . . وعلى هذا الأصل جعل الضعف جزاء القادة الخاطئين ، وعرض ذلك فى غير صورة واحدة .. فحينا كان دعوة اتباعهم عليهم إذ يقولون : [ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبيراً] وحينا كان عقابا للمقربين المقتدين بهم إذا أخطئوا ، كقوله : [يانساء النبى من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين] وكنت بهذه المناسبة قد أهبت بهواة الفن القرآنى ، أن يقدروا أن لاستعمال القرآن ، وحدة فنية ، وفكرة أدبية ، حين يعبر بالضعف أو بالضعفين . وأن له فى هذا أصلا ثابتا ، يربط قريب الآيات ببعيدها و مكيّها بمدنيّها مهما يتراخ الزمن ، وتتباعد

الأيام .. ونريدهنا لنقف عندهذه الوحدة للاستعمال القرآنى ، فى تعبيره بالضعف والضعفين وهى وقفة أدبية ، نشرف فيها على آفاق من طرائف الفن القولى ، الذى ذهب به هذا القرآن كتاب العربية الأكبر .. على أنها ليست وقفة يراد منها الفن للفن ، بل هو فنه المرتبط بالهدف الاجتماعى الذى يرمى إليه القرآن دائما ، نبتغيه أول ما نبتغى من هذه الأحاديث . . فإذا ما قال قائلون أن الفن لا يلتزم الفضيلة موضوعا له ، وأن الفن يرجى للفن وحــــده ، فإنا لا نأخذ هنا ، بهذا الاتجاه . ولا نحسب القرآن قد أخذ به ، لأنه يجعل فنه القوى وسيلة لأصلاح الحياة البشرية ، ذلك الأصلاح الخلقى والاجتماعى العام الذى أنزل من أجله هدى للناس ورحمة ، يهدى للتى هى أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيرا .. فنظر نافيما يرمى إليه القرآن حين يستعمل الضعف فى ثواب وعقاب إنما يراد منه أن نعرف هل له فى ذلك فكرة ثابتة تتم بها وحدة الاستعمال التى نطمئن إلى تقريرها والقول بها ؟... ثم ما صلة هذه الفكرة فى التعبير ، بالمرمى الاجتماعى والخلقى فى تبعات القادة ، ومسئوليات أولئك المتبعين ؟.. ثم أننا نرمى من وراء ذلك كله إلى الارتياض والدعوة للأخذ بالنظرة الشاملة ، والفكرة الجامعة فى تفسير هذا القرآن راجين أن يتمسك بها أصحاب القول فى تفسيرات اليوم فيتتبعوا استعماله ، فى المواطن المتباعدة ، والمناسبات المتغايرة ليستشفوا من وراء ذلك ، نظرياته البعيدة ، فى نظمه وصوغه .. ولا يكتفون بالنظرة الجزئية ، إلى الكلمة فى الآية والآية فى السورة ، لأن ذلك لا يلائم أهمية هذا الكتاب ؛ ولا يهدى إلى دقائق مراميه الإصلاحية الكبرى التى يحتملها نظمه المعجز وصوغه

الباهر ولا يمكن فهمه الفهم الحق ألا بالملاحظة المتتبعة الوافية . . ولئن كان هذا الاتجاه ينتهى بنا إلى معان لم يهتـــد إليها المفسرون الماضون فلا جرم أن نخالفهم فى فهم بعض الآى أو العبارات . . ولا تثريب علينا فى هذه المخالفة لأنهم لم يستوفوا رد الشبيه إلى الشبيه وضم النظير إلى النظير من نظم القرآن واستعماله . . أحسن الله إليهم بما بذلوا من جهد ووفق من بعدهم إلى الوفاء بما بقى من ذلك ووجب ، فرقا بين الأعصر وتدرجاً مع الزمن .

ياهواة الفن القرآنى : تروته يستعمل كلمة ضعف فى حديثه عن العذاب وما أكثره عن حال الأتباع الضالين وقادتهم ، يتلاومون فى النار يتحاجون :

قال ادخلوا فى أمم قد خلت من قبلكم من الجن والإنس فى النار كلما دخلت أمة لعنت أختها ، حتى إذا اداركوا فيها جميعاً قالت أخراهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذاباً ضعفاً من النار . قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون . وقالت أولاهم لأخراهم فما كان لكم علينا من فضل فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون] وفى مثل هذا الموقف أيضا يحكى حال الرؤساء الطاغين إذا دخلوا النار واقتحمها معهم فوج تبعهم فى الضلال .. يقول القادة عن اتباعهم الداخلين : [لا مرحباً بهم أنهم صالوا النار] فيقول التابعون للرؤساء : [بل أنتم لا مرحبا بكم أنتم قدمتموه لنا فبئس القرار] وما يلبثون أن يدعوا عليهم [ربنا من قدم لنا هذا فزده عذاباً ضعفاً فى النار] . وفى الحديث عن العذاب أيضا يذكر كلمة ضعف حين يتوعد رسول القرآن ﷺ بما يقـــع له لو ركن إلى قول

المخالفين .. [ولولا أن ثبّتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلا إذنْ لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجدُ لك علينا نصيرا] فقد ذكروا أن المعنى لأذقناك ضعف عذاب الدنيا وهو ضعف الحياة وضعف عذاب الآخرة وهو ضعف الممات .. تلك هى مواطن ذكر كلمة ضعف فى العذاب .. ولم تذكر فى غيره مفردة منكرة هكذا . . وقد ذكرها فى الحديث عن النعيم فقط فكانت معرفه كما كانت المنكرة فى العذاب فقط .. ذكرها بياناً لما عليه الجزاء وبه القربى عند الله فى رده على الظانين خطأ أن أموالهم وأولادهم تقربهم عند الله زلفى . . [وما أموالكم ولا أولادكم بالتى تقربكم عندنا زُلْفى إلا من آمن وعمل صالحا فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا وهم فى الغُرفات آمنون] . . تلك مواطن استعمال الكلمة مفردة أما مواطن استعمالها مثناة فقد كانت فى العذاب وفى غيره : فى العذاب كما رأينا فى دعاء التابعين [ربنا آتهم ضعفين من العذاب] وفى وعيد المقربين [من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين] وفى غير العذاب حين يمثل للذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله . [ومَثَلَ الذين يُنفِقُون أموالَهم ابتغاءَ مَرْضاة الله وتثبيتاً من أنفسهم كمَثل جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أصابها وابلٌ فآتت أُكُلَها ضعفين فان لم يصبها وابلٌ فطل] .. تلك هى استعمالات القرآن لكلمة ضعف وضعفين نظر فيها المفسرون الأولون حين قالوا عن كل آية فى سورتها فكان فيهم من رد بعض المواطن المختلفة إلى بعض على غير أساس ففسر كلة ضعف المفردة فى قوله هؤلاء أضلونا فآتهم عذابا ضعفاً

فى النار بالمثناة . وفى قوله ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبير مسويا هذه بتلك .. وهو ماتهدى النظرة الشاملة التى ندعو إليها لعكسه .. نعم إن فى هذه الاستعمالات ماهو مكى وما هو مدنى وقدتباعد بينهما الاستعمال ولكنا نطمئن إلى أن استعمال القرآن للكلمة يتبع حسا فنياً دقيقاً يفاوت بين استعمالها معرفة وبين استعمالها منكرة وبين استعمالها مفردة وبين استعمالها مثناة .. ويختلف الحديث عن العذاب فى حسه كل الاختلاف عن الحديث فى النعيم والخير ولن نحتمل أن نفسر الكلمة مفردة فى آية عذاب للكلمة نفسها مثناة ولا أن نفسرها منكرة بها ذاتها معرفة .

ياهواة الفن القرآنى : إن الأولين يفسرون الضعفين فى وعيد نساء النبى ﷺ بالمرتين محتجين لذلك بأن من تقنت منهن لله وتعمل صالحا يؤتها أجرها مرتين فكذلك إذا ماأتت احداهن بفاحشة مبينة عذبت مثلى عذاب غيرها وليس العدل أن تعطى على الطاعة أجرين وتعذب على المعصية ثلاثة أعذبة .. ونقل عن بعضهم أن هذا هو قول حذاق النحويين وأهل التفسير .. ولكن هذا الكلام أيضاً مما لا يتحرج الناظر فى جملة استعمال القرآن والمرتاض بأسلوبه من أن يرفض الاطمئنان إليه معتذراً إلى هؤلاء الحذاق شاكرا لهم ما صنعوا فى فهم القرآن إلى عهدهم مقداراً أنه كتاب الدنيا والبقاء ..

ياهواة الفن القرآنى : تعالوا ننظر تلك النظرة المرجوة فى تتبع الكتاب الأكبر ، مقدرين أول ذلك أن معانى كلمة الضعف فى اللغة تلتقى عند أنه فى الأصل المثل إلى مازاد وليس مقصوراً على مثلين . وأقل الضعف محصور

وهو المثل وأكثره غير محصور بل يصل إلى أمثال كثيرة وعلى هذا الأساس ننظر فى الآيات التى وردت فيها كلمة الضعف فنراها حين وردت منكرة فى الحديث عن العذاب فقط كما أشرنا يبدو فيها القصد إلى عدم الاكثار من الزيادة ويدل سياقها على هذا فهى مثلا فى حديثه عن الرسول عليه السلام وتكرار كلمة ضعف الحياة وضعف الممات كانت عن ذنب فرضى لم يقع ولن يقع ولا وجه لإرادة الإكثار من الزيادة مع مثله عليه السلام ثم هو فى حديثه عن القادة وأتباعهم حين يتحاجون فيوزع كل منهم المسئولية على صاحبه حتى يقول القادة الكبار لتابعيهم فما كان لكم علينا من فضل — حين يفعلون ذلك والمقام ليس مقام إرادة الكثرة الزائدة فيقول لكل ضعف وفى مثلها وردت دائما مفردة منكرة .. لكنه حين يوردها فى سياق الكثرة المتوافرة يعرفها فيقول فى جزاء الصالحين: [فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا] . والضعف فى الحسنات يصل إلى العشر : [من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها] بهذا اختلف التعريف عن التنكير .

أصحابَ الحسّ الأدبى : تنظرون فى استعمال القرآن كلمة ضعف مثناة فتجدونها فى سياق يقتضى الكثرة الوافرة ، فهو مثلا حين يتحدث الاتباع عن قادتهم ويلقون التبعة عليهم فى أضلالهم بقولهم بالتثنية : [ربنا آتهم ضعفين من العذاب] .. وهو حين يتحدث عن نساء النبى وقد وصفهن بقوله: [لستن كأحد من النساء] ووصف خطأهن بأنه [فاحشة مبينة] يستعملها مثناة . . [يضاعف لها العذاب ضعفين] . . وهو حين يذكر الخير الوافر والنماء الكثير فى مثل الجنة التى أصابها وابل فآتت أكلها

ضعفين والمعنى فى كل هذا يقوى بالزيادة والكثرة لا بتحديد الضعفين بمرتين كما نقل من قول نحويين أو مفسرين .

أصحاب الحس الأدبى : أن ألف هذا الأسلوب القرآنى فى استعمال التثنية مرادا بها الكثرة يرد حجة هؤلاء فى تفسير الضعفين بالمرتين .. يقضى ألف هذا الأسلوب بإرادة الكثرة من التثنية فى مواضع غير قليلة ألا تسمعونه حين ينفى التفاوت فى خلق الرحمن يقول : [فارجع البصر هل ترى من فطور ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئا] فالكرتين مرات كثيرة لتكرر الأمر بالرجع وذكر ثم بين الأمرين [وممن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مَرَدُوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم سنعذبهم مرتين] يريد بالمرتين مرات لقوله بعدها [ثم يردون إلى عذاب عظيم] وشواهد ذلك كثيرة تجعلنا نفسر المرتين فى أجر نساء النبى بالمرات والضعفين فى عذاب ثانى بفاحشة مبينة بأضعاف كثيرة وكذلك أراد القرآن بالتثنية فى الضعفين الأمثال الكثيرة ولوساير الأقدمون هذا الأسلوب فى تتبع لما فسروا الضعفين بالمرتين ولا جعلوا المرتين اثنتين معدودتين .

أصحاب الحس الأدبى : هذا لون خاص من الحديث لا يهش له ألا من له به عناية دفعت إليه الرغبة فى تفسير القرآن الكريم على أساس النظرة المتتبعة لأساليبه فى مختلف استعمالها وعلى أساس من الحس المتذوق لبيانه الدقيق دون اكتفاء فى تفسيره بتلك اللمحات العابرة لمعانى الكلمات مع البعد والفرق باختلاف السياق والمناسبة ودون أن تسمو الملاحظة

فى ذلك حتى تتصل بأهداف القرآن الحيوية وغاياته الاجتماعية . . الرغبة اللحة فى تأصيل هـذا التفسير هى عذر تلك الأطالة النافدة والتتبع الوافى : وأنها لمعذرة .

أيها المهتدون بهدى القرآن : أن هذا الفن السماوى يفيض رحمة وبراً بالناس فإذا عرض لما فيه خيرهم والإحسان إليهم ذكر كلمة ضعف لامفردة ولا مثناة بل لم يكتف بها مجموعة فوضعها بالكثرة وصرح معها بالمضاعفة كما تلونا صدر هذا الحديث . [من ذا الذى يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة] . كذلك صيغ هذا التنزيل صياغة دقيقة خلابة بعيدة المرمى جليلة المغزى . . فإن أردتم أن تنظروا إلى استخدام هذا الفن لخير الحياة فيما نحن بسبيله من تبعات القادة وجدتم الفكرة الثابتة لاستعماله كلمة ضعف أنه : حين نكر الكلمة قال لكل ضعف قد أخذ المضلين بأضلالهم وأفسادهم غيرهم وآخذ التابعين بتقليدهم قادتهم وأكبارهم أمر المضلين رافضاً بذلك اعتذارهم بخطأ الكبراء والعظماء على نحو ما نسمعه كثيراً من اعتذاو عامتنا بما عليه القادة والكبراء ملزما إياهم بالتبصر فى أمرهم والتزام إصلاح شأنهم . . وفى هذا أخذ كل حظه من العذاب دون عناية هنا بالتكثير والزيادة .. ثم هو حين ثنى الضعفين فأراد الكثرة قـد جمل على القادة تبعات فى إضلالهم لغيرهم ردعا لهم بتلك الكثرة وإصلاحاً لشأنهم . . وهكذا ألا تجدون من هدى القرآن تلك المتعة الفنية الناقدة فحسب بل تلك اللاحظة الاجتماعية الصالحة المصلحة هدا كم هديها .

تبعات القادة

(٤)

[فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله وأما الذين استنكفوا واستكبروا فيعذبهم عذاباً أليماً ، ولا يجدون لهم من دون الله وليًّا ولا نصيرا] . تحدثنا عن تبعات القادة ، وأنهم ينالون وينالهم ، ضعف ماينال غيرهم ؛ لأنهم قادة وقدوة ، يفزع الناس إلى محاكاتهم .. ودفعنا هـذا الحديث ، إلى النظرة الفنية ، فى استعمال القرآن لكلمة « ضعف » ، فى صورها المختلفة ، وتتبع مواطن ورودها ، على المنهج الذى نرجو ، أن يأخـذ به المتصدون لفهم القرآن ، والقول فى تفسيره ، فرأينا من هذا التتبع : أن القرآن قد سخر فنه القولى ، لخدمة الأهداف الاجتماعية ، التى يدعو لها ، ويدفع الحياة إليها .. وذلك حين يخالف بين معانى « الضِّعف » زيادة وتكثيرا ، باختلاف سياق القول وموضوعه . فيجعله « المثل » فى حديثه عن توزيع المسئولية ، بين القادة والأتباع ، ويقول : لكل ضعف . . لأن لكل خطأه : على القادة إضلالهم ، وعلى التابعين تقليدهم ، فى غير تبصر ، ولا شعور بإنسانيتهم وواجبهم ويورد الضعفين ، بمعنى الكثرة المجتمعة ، حين يعرض لسوء أثر القـادة على قومهم وشناعة إفسـادهم لأمرهم لأن زلتهم بلقاء مشهورة . بعيدة مدى الخطر .. وأن وراء هـــذا من تسخير القرآن ، فنه القولى ، لخدمة الأغراض الإصلاحية للبشرية ، نواحى أخرى ، من هذا الاتجاه ، لها أهمية

وفيها دقة ، فنريد الآن لنقف عند مرامى أخرى فيها ، لقد لفت القرآن الكريم إليها ، من تبصر وتدبر ، بياناً لتبعات القادة .

أيها المقدرون وحدة الجماعة : إن صلة الفرد بجماعته ، وصلة الجماعة بحاكمها ، كانت منذ القدم ، موضع تنظيم ، يقع عليه الاختلاف ويشتد ، حتى يصير إلى المشادة والمنازعة ، فى صور مختلفة ، على مر الأزمنة . ثم ما يزال هذا التنظيم إلى اليوم ، موضع تلك المخالفة والمشادة .. ومن يدرى ، إلى متى سيظل هذا التنظيم موضعاً لذلك ، فيما يلى من الأجيال والأزمان ؟ . . ولعلنا نقدر أن هذه الحرب المحرقة المهلكة ، التى عصفت أعواما ، بهناءة الإنسان وأفسدت طعم الحياة ، وأهدرت حرمة البشرية ، إنما يدور الصراع فيها ، بين صورتين من صور هذا التنظيم ، لصلة الفرد بالجماعة ، وأسلوبين من أساليب الحكم .. وأن ذلك الاختلاف بينهما ، سبب أى سبب للنزاع والقتال ... ومهما يكن الأمر ، فإن العالم اليوم — ولعله قبل اليوم بكثير — يعرف خطتين فى الحكم ونظامه ، يختلف فيهما التدبير لهذه الصلة بين الواحد والكثرة ، وسياسة شئون الجمهرة . . فأولى هاتين الخطتين ، تلغى وجود الفرد ، أو تكاد . . وتطغى وجود الجماعة عليه ، مسخرة الواحد ، لما تعده هى غاية لقومه ، وفى سبيل توحيد الجماعة ، وحدة آلية ، تلتقى هذه الخطة بأزمة الحكم ، إلى سلطة مركزة ، وقوة موحدة ، يقل فيها الاختلاف ، ويمتنع معها ضياع الوقت ، فى الائتمار ، وتبين الرأى ... وتلك فى جملتها هى « الديكتاتورية » .. أو مايشبه هذا من التسمية .. وأما الخطة الثانية للحكم فتعترف ، أو تسرف فى الاعتراف

بوجود الفرد ، إذ تمكن له من فرص التعبير عن نفسه ، وتدخله في التقدير والتأثير حين تجعل الأبرام والإمضاء رهنا بالعدد الكثير ، والوحدات المكررة ، وتضبط سير الحياة بذلك .. وفي هذا السبيل تلقى مقاليد الأمر فيها لغير واحد وتديل الحكم بين متعددين ، وتفسح المجال للاستشارة والاستفتاء ؟ .. وتلك في جملتها هي «الديمقراطية» أوما يشبه هذا من التسمية .. وما يعنينا الآن أن ننظر ، في هاتين الخطتين ، من حيث هما أسلوبان في تنظيم صلة الفرد بالجماعة أو تسيير الحكم وإنما يعنينا النظر فيهما ، من الناحية الخاصة ، بما نحن بسبيله من أمر القادة ، في النظامين وتبعاتهم على الخطتين ...

أيها المقدرون وحدة الجماعة : إن الصورة الأولى في الحكم ، وهي تلك الدكتاتورية : يبدو فيها واضحا ، ومن قرب ، خطر أولئك الأفراد المتبعين ، وقوة أثر أولئك القادة اللافتين ؛ لأنهم — بحكم هذا النظام — قد وضعوا أنفسهم أو وضعتهم ظروفهم ، في موضع واضح ، ومكان بارز في ميدان الحياة وعلى مرأى ومسمع من الجموع ، فقد ركزوا كل شيء في أشخاصهم ، إذ ركز فيهم كل شيء ،وأداروا كل شيء حولهم ، أوأدير حولهم كل شيء ، فهم منبهون مستهوون قد حملوا من عبء الأضلال الكثير الثقيل ، فليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم ، وليبدون ذلك من أمرهم ملموسا قريبا ، لايجادل فيه ... وأما الأسلوب الثاني ، من أساليب الحكم ، وهو تلك الديمقراطية ، فلا يبدو فيها مركز القادة واضحا ذلك الوضوح ، ولا مسئوليتهم جلية هذا الجلاء ، فلم تضعهم الظروف ،على مسرح الحوادث

وضع رجال الحكم الأول : لأنهم — فيما يظهر — قد أفسحوا لكل فرد مجال القول ، وفرصة أبداء الرأى : وهم يستصدرون من عدد كثير ، يمثل الجمهرة العامة ، صورة الرضا عن عملهم ، والموافقة على تدبيرهم .. هذا الذى يظهر ، ولكنك لودققت النظر فى حال هؤلاء المتبعين ، ومدى تأثيرهم ، مع هذا النوع من الحكم ، لوجدت مسارب الخطر الخفية واسعة معبدة ، ومسالك التأثير القوى ، والتوجيه الشخصى ، ممهدة موصلة ، تؤيد فماها طبيعة الجماعات ، وعقلية الجماهير ، واندفاع الكثرات . وإن الأمر حين يدار على الرأى والاستشارة ، إنما ينتهى فى الحقيقة والواقع ، إلى الاقناع والاستهواء ، والتسيير والتأثير والتوجيه القوى ، وأن طبيعة هذا النظام قد هيأت سبيل هذا كله ، وسهلت تحقيقه ، بما يوضع لذلك من تنظيم وتنسيق تحتكم فى الرأى ، وما يباح فى ذلك من خطابة خلابة وجاذبية شخصية ، إلى غير ذلك من مؤثرات حادة ، يصبح الرأى بعدها ، والاختيار معها ليس إلا تلقينا وتوجيها ، وتنبيها وتسييرا : يتعرض به الأفراد لخطر الاقتياد ، وشر الانقياد بشخصية المتصدرين ، وجاذبيتهم ، وأساليب استوائهم مع ماهنالك من نظمهم وترتيبهم فى ضبط الأعداد ، وتسيير الأشخاص .. ومن هنا يحمل القادة ، فى تنبيه الأفراد ولفتهم ، بل فى دفعهم وحملهم عن المحاكاة ، تبعات وتبعات ... وتكون تلك الآراء التى هى كثرة عددية رقمية ، ليست فى الحق كثرة فكرة دورية ، قد فكر كل فرد منها وقدر ، ثم رأى واختار .. بل هى فى الواقع عقل جمعى قد انفعل ، واستهوى فاقتنع ، وتأثر فاندفع .. وعلى القادة فى كل ذلك تبعاتهم

ومسئولياتهم ، فى هذه الديمقراطية ، كما وجدته فى غيرها .. بل لعلك لاتعدو الانصاف ، إذا ماقلت إن القادة ، فى هذا النظام الثانى من نظم الحكم ، أنفذ تأثيرا ، وأعمق توجيها منهم فى النظام الفردى الأول ، لأن شعور الفرد الظاهر بأنه حر ، وظنه أنه مستقل ، ووهمه أنه مقدر ومكون رأيا ، يُنيم فيه كل رغبة فى المقاومة ، وكل ميل إلى المعارضة ، ويهون عليه الانقياد والاتباع .. وهو مالا يتوافر فى النظام المتشدد ، حين يواجه بالتحكم ، ويمالن بالضغط ، فيثير — إلى حد ما — حفيظة المكبوتين .. وفى كل حال ، فانا لانعرض هنا لهذه المفاضلة ، وبحسبنا أن كلا النظامين يهيىء للقادة والمتصدرين ، فرصة وافية ، للفت والتنبيه ، ودفع الاتباع إلى المحاكاة والتقليد ، وأن ذلك إن كان فى الدكتاتورية والفردية ، تحكم واحد أو قلة بارزة ، فربما كان فى غيرها ، تحكم غير واحد ، واستهواء من كل ذى موهبة متفوقة وشخصية واضحة ، مادام يجد السبيل إلى الاقناع ، والمجال للتأثير ، بمعنى ما ومؤثر ما . وما أكثر هذه السبل فى طبيعة هذا النظام الديمقراطى للحكم — تلك ظاهرة اجتماعية قد شعر بها الباحثون ، وخشيها الناقدون ، وراحوا يلتمسون العلاج لذلك ، اتقاء لخطره ، ودفعا لضرره ، ولكن هذا الاتقاء والدفع ، لايبدو سهلا ولا ميسورا ، بل أن الجموع دائما ، عرضة للعدوى القوية ، والتأثير المسيطر ..

أيها المتفهمون هدى القرآن : أترونه وقد ذكر تبعات القادة ، وتوعدهم بالضعف والضعفين ، قد نسى ناحية كهذه ، وقدر خطورة كتلك التى يتعرض لها الناس على اختلاف نظام الحكم — أم هو قد اتجه إلى الناحية الفردية

وحدث عن خطرها وتأثيرها لاغير ؟ ؟ أما أنى لأحسبه قد استشرف لهذا الملحظ ، وقدر ذلك الخطر فيما تناوله من هدى دينى ، وحديث اعتقادى ، ومايجرى فى ذلك من تأثير وتأثر ، بين طبقات من الناس .. نعم .. فقد ذكر القرآن من الفردية الحاكمة مثـلا صارخا ، هو حكومة فرعون فى مصر ، وقد أسلفنا ، أنها ضرب من طغيان الحـكم ، الذى استوفاه ولعله أكثر فيه وأطال ، ليوقى العالم ضره وشره ، وجمع فى محكم نظمه . وبديع صوغه ، عناصر هذا الطغيان وعبارات قوية سائرة ، كقوله مثلا : عن لسان فرعون : [ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد] فهى شنشنة الطغاة أبدا عن اختلاف الألوان وتباعد الأزمان : لا رأى إلا رأيه ـ وماأريكم إلا ماأرى ؛ وهو منزه عن الخطأ، وما أهديكم إلاسبيل الرشاد . وفيما نحن بصدده من تبعات القادة، قدذكر أثر فرعون السيء ،على قومه ، وما باء به ذلك من جزاء ، فقال [وضل فرعون وقومه وما هدى] .. [فاتبعوا أمرفرعون وما أمرفرعون برشيد . يَقدُمُ قومه يوم القيامه فأوردهم النار وبئس المورود . واتبعوا فى هذه الدنيا لعنة ، ويوم القيامة وبئس الرفد المرفود] .

أيها المتفهمون هدى القرآن : تلـكم هى الصورة القريبة المشتهرة ، إذا ماذكر القادة المضلون ، أو الـكبراء ، أو السادة .. وهى مايكون فى الصنف الأول من أصناف الحـكم على ما أشرنا إليه .. ولـكن القرآن بعد ذلك ، قد عرض للحديث عن الثانية من طغيان المؤثرين على الجماعات فى تفكيرهم واقتناعهم ، وتناول القول عن توجيه النفوس ، وفعل الموجهين

المضلين ، ممن لهم نفوذ ، وسيطرة ، وقوة مؤثرة ، تمنحهم قوة شخصية ، ومقدرة على التصور ، تجعلهم متبوعين مطاعين ، يسمع لقولهم ويقتدى بفعلهم .. وهو يعرض لهذا حين نجده يتحدث جنبا ، عن الذين استكبروا والذين استضعفوا ، وما يجرى بينهم من قول فى الدنيا ، أو حجاج فى الآخرة ، تلمس فيه تأثير الأولين ، وتأثر الآخرين ، . وأنه ليجمع بهذا الاستكبار الذى يصفهم به ، أولئك العوامل المختلفة التى يصفها الدارسون ويعدونها وجوها للجاذبية والفاعلية ، كما يجمع بالاستضعاف الذى ينعت به الآخرين أولئك العوامل ، التى يبين الباحثون بها قابليــة التأثر ين ، وانفعالهم حين تستهويهم أولئك المستكبرون ، برأيهم ، وعملهم ، بل بإشارتهم ، على نحو ما نشهد من صرعى هذا الصنف ، فى الخطـة الثانية للحكم ، حين تحسبهم أشخاصاً يرتئون ويشيرون ، وما هم إلا ظلال تمتـد وشخوص تعد — كما يتحدث القرآن حينا ، عن هذه الظاهرة ، بذكره الذين اتبعوا والذين اتبعوا ؛ وما يجرى بينهما ، من ضعف الأتباع ، وعجزهم عن مقاومة تأثير المتبعين .. فاستمعوا من ذلك لمثل قوله فيما يجرى بينهم فى الدنيا : [قال الملأ الذين استكبروا من قومه ، للذين استضعفوا لمن آمن منهم : أتعلمون أن صالحــاً مرسلٌ من ربه ؟ قالوا إنا بما ارسل مؤمنون . قال الذين استكبروا : إنا بالذى آمنتم به كافرون] وكذلك وجَّهوهم فضلوا جميعاً ، وحاق بهم الهلاك .. واستمعوا من ذلك لما يجرى بينهم فى الآخرة حين تتضح النتيجة ، ويبدأ عجز هؤلاء المتكبرين ، وينكشف أمرهم ، أمام قوة الله الحق .. ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم ، يرجع

بعضهم إلى بعض القول : [يقول الذين استُضعِفوا ، للذين استكبروا : لولا أنتم لكنّا مؤمنين . قال الذين استكبروا للذين استضعفوا : أنحن صَددْنا كم عن الهُدى بعد إذ جاءكم !! بل كنتم مجرمين . وقال الذين استضعفوا ، للذين استكبروا : بل مَكْرُ الليل والنهار ؛ إذ تأمروننا أن نكفر بالله ، ونجعل له أنداداً . وأسرّوا الندامة لمّا رأوا العذاب] [وإذ يتحاجّون فى النار ، فيقول الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعًا ، فهل أنتم مُغْنُون عنّا نصيبا من النار ؟ قال الذين استكبروا : أنّا كُلٌّ فيها إن الله قد حكم بين العباد] .. [وبَرَزُوا لله جميعاً . فقال الضعفاءُ للذين استكبروا : إنّا كنا لكم تَبَعاً فهل أنتم مُغْنُون عنا من عذاب الله من شيء؟ قالوا : لوهدانا الله لهدَيْنا كم سواءٌ علينا أجزِعْنا أم صَبَرْنا ، مالنا من مَحيص] كما يقول : [إذ تبرّأَ الذين اتُّبِعوا من الذين اتبَعوا ، ورأوا العذابَ وتقطّعت بهم الأسبابُ . وقال الذين اتّبعوا : لوأن لنا كَرّةً فنتبرّأ منهم كما تبرءوا منّا !! كذلك يريهم الله أعمالهم حسراتٍ عليهم ، وماهم بخارجين من النار] .. تلك وما إليها صور شاخصة يحضرها النظم القرآنى فكأنها ماثلة تسعى ، تعرض لك ما يجرى فى الجماعات من صنوف التأثير والاقتياد . وقد تولى بيانها فى المسألة الدينية الاعتقادية لأنها مجال أى مجال للاتباع ثم هى مما يكشف لك قوة هذا التأثير المستهدى ، الذى يطغى على دعوة الأنبياء ، وبيان المرسلين ، ويتغلب على الآيات والمعجزات ولا يقف فى وجهه كل هذا الإرشاد والتدبير المحتاط بل يفسده مكر الليل والنهار ، وتأثير الذين اتبعوا على

الذين اتبعوا وانفعال الذين استضعفوا بالذين استكبروا ، وهكذا تلمس هذه الظاهرة جلية الأثر ، بعيدة الخطر فى الحياة ، ويتجسم أمامك فعل القادة والكبراء والمستكبرين ، وما يحتملونه بذلك من تبعات جسام يوعدهم القرآن من أجلها بقوله : [وأما الذين استنكفوا واستكبروا فيعذبهم عذاباً أليما ، ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً]

ياشرق : قادة ومقودين . . هــذا بيان للناس ، وهدى وموعظة للمتقين .. وألا تكن أسبق الناس إلى فهم ، فلقد كنت تكون أدعاهم له ، وأحرصهم عليه ، بعد ما فهمه غيرك ، وأثبته إليه سواك . . ولقد يسرنا القرآن للذكر ، فهل من مذكر .

قادة لا جبابرة

(١)

[لا إله إلا هو له الحمد فى الأولى والآخرة وله الحكم وإليه تُرْجَعُون]

لقد جاءكم من نبأ المرسلين ، قرآن عجب يهدى إلى الرشد ، وينير سبيل المجد ، ويستجيب لآمال الشرق .. فعرفتم من مميزات القادة ، ماسمت به أرواحهم ، ورأيتم من شمائل القادة مازكت به نفوسهم .. إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب ، أو ألقى السمع وهو شهيد ... ومن هدى القرآن فى تطهير نفوس القادة ، وتكميل شمائلهم كثير وكثير ، تعوز الحياة العناية به ، ويشوقها الإصغاء المنصت له .. وفى القرآن وراء ذلك رياضات لأولئك القادة تجنبهم الإنحراف النفسى ، وتوقيهم خطر الغرور البشرى ، وبذلك تخلص الإنسانية من شرور هذا الانحراف ، وسيئات ذلك الغرور .. وما أهول وأروع !! فمن اندفاع النفوس فى أهوائها ، واسترسال الميول فى جمحاتها ، يصلى العالم اليوم نيراناً حامية ، أو يعانى أهوالاً شدادا ، من أقسى وأشنع ماعرفت الدنيا ، وأخزى ما افتضحت به البشرية المحتضرة ونقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً ... وإنه ليوشك أن يكون التحدث إليها الساعة ، عن العقل المفكر ، أو النظر المتدبر ، لوناً من العبث الضال ، لاخير فيه ، ولاجدوى من ورائه ، لولا بقية أمل لاتيأس من روح الله . [إنه لاييأس من روح الله إلا القوم الكافرون] .

أيها المبصرون أنفسهم .. إن هذا الإنسان فى كيانه عالم كبير ، وفى

شخصه وجود حافل ، تلقى فيه الأضداد من القوى ، وتتلاقى المتخالفات من الغرائز ، يدفع بعضها بعضا ، ويكبح بعضها بعضا ، وهو منته من هذا التدافع إلى توازن ، كلما ظفر منه بنصيب وافر ونال منه حظاً عظيما ، اتسعت معيشته ، واطمأنت حياته ، ، وكلما نقص ما له من هذا التوازن اضطرب أمره ، وتزعزع كيانه ... وإلى هذ التوازن يسعى المروضون لهذا الحيوان الناطق والمربون له ، من دعاة الإصلاح بالدين ، وغيره من الوسائل المختلفة والمحاولات العديدة ، على مر الأدهار . واختلاف العصور [وفى الأرض آيات للموقنين ، وفى أنفسكم أفلا تبصرون ؟] .

أيها المبصرون أنفسهم : من هذه القوى المتنافرة فى الإنسان قوتان : إذا ما أعدت احداهما ، وجداناً شخصياً إيجابياً ، فإن الثانية تحسب وجداناً شخصياً سلبياً ، لما بينهم من التقابل التام : فعن الأولى مصدر ما فى حياة الإنسان من حب الظهور ، والميل إلى الرياسة ، والرغبة فى السيطرة ، وما يتصل بهذا من حرص على القهر ، وإيثار للتغلب وطماعية فى الفخر والكبر والاعتداد بالنفس وما إلى ذلك من شتى الصور التى تظهر بها أمثال هذه المعانى فى أعمال الانسان وتصرفاته ... على حين يصدر عن الثانية ، من القوتين ، ما فى حياة الإنسان من نزول على إرادة الأقوى . واستسلام لغالب ، وإعتماد المرء على غيره ، وحرصه على شيء طاعةً ، أو التزامه عقيدةً ، ونحو ذلك من مظاهر الخضوع فى الأفراد والجماعات خضوعاً يهيئها للتسخير والتوجيه الملهم . توجيهاً تنتج عنه نتائج عظيمة الأثر فى سير هذا الوجود . وتتصل كل واحدة من هاتين القوتين بما يلائمها من قوى أخرى تعين على

أغراضها وتسايرها ، فتتصل أولى القوتين وهى المسيطرة بألوان الغضب والسخط فى الانسان حتى تتصل القوة الثانية . وهى المخضعة بمظاهر الخوف والرعب وما إليها فيه ..

أيها المبصرون أنفسهم ... إن لكل قوة من القوتين أثرها فى حياة الفرد والجماعة حسب اختلاف حالها ، اعتدالا وشدة . وضبطا وكبحا وتهذيبا وإصلاحا ، فمن القوة الأولى ، يكون ما نرى فى الشخص أو الأمة من تعشق للنجاح يتغلب على الصعوبات المواجهة ويفقد العزم الماضى على الوصول والظفر ، ويجرد له النشاط والقدرة وعنها يكون الدفاع عن الكيان وإيثار الاستقلال فى العمل .. كما أن منها يكون حب السيطرة على الأشياء ، وطلابها بالهجوم والأسلاب ، وكذلك يكون منهاحب السيطرة على الأشخاص والسيادة عليهم ، حينما تشتد هذه الغريزة ، فيبدو وصاحبها دائما قويا ، متميزا صلب العود ، ماضى العزم ، عنيدا ، لا تروعه صعوبة ولا ينكص أمام عقبة فهى غريزة القادة ، وهى خلة الزعماء وعدة الحكام . وبتطرفها يظهر الطغاة ويبرز الجبابرة .. ثم ينظر إلى مقابلتها الثانية فتراها إذا صلحت منشأ ما فى الجماعة ، من اعتقاد بدين بقوة منظمة للكون ، معدلة لشئونه وعن هذه الغريزة ، تكون الرغبة فى التزام النظام أو احترام القانون [1] وبها تنزل الجماعة على إرادة قوادها ، والخضوع لهم خضوعا قد يكون استهوائياً

---

(١) أصول علم النفس للاستاذ أمين مرسى قنديل ١ : ١٦٦ — ١٧٠ والغرائز للغمراوى بك ص ١٥٩ ومذكرات فى علم النفس للأستاذ مظهر سعيد ، ومحمد عطيه الابراشى ، وحامد عبد القادر ص ١٠٥ — ١١٤

ساحراً مستجيبا لقوة مسيطرة فى أولئك القادة ، فتكون من ذلك مجموعة هائلة نافذة إلى ما توجه له من غرض ، تعز غلبتها ، ويصعب ردها ..

أيها المبصرون أنفسهم .. ما أحوج كل فرد ، وما أحوج كل جماعة إلى أن تتعادل فيهم هاتان القوتان ، وتتوازن تلك الغريزتان لتستقيم لهما الحياة فيكون فى الفرد أو الجماعة من حب الرياسة والسيطرة ، والرغبة فى القهر والغلبة مايدفع إلى الشعور بالنفس ، ويحمل على احترام النفس ، ويظهر أثره فى حب معالى الأموز وكراهية سفسافها وتافهها دون أن يسرف ذلك ويشتط ، فيستحيل إلى طغيان متمرد ، بل يعادل حب السيطرة ، قدرٌ من حب الخضوع ، يمسك النظام ويحفظ المعتقد دون إسراف فى ذلك ، ولاشطط أيضاً . يكون استخذاء أو استسلاماً وفقدانا للشخصية وبهذا التعادل تكون الحياة الصالحة الموفقة .. وإذا ما احتاج كل فرد ، وكل جمع إلى هذا التعادل ، فإن أشد الناس حاجة إلى التعادل وأبعد الناس أثراً على الدنيا باعتدال الغريزتين فيه : هم القادة ، فهم بمزاياهم الفائقة وشمائلهم المتفوقة يلتفون الجماعة لتحاكيهم ، ويقودون إرادة الجماعة ، ويلفتون عقل الجماعة ، ويوجهون عزم الجماعة إلى العظائم والمكرمات ، قد أهلتهم الفطرة الصافية لمراكزهم الخطيرة ، ذات الأثر القوى والتأثير المرجى .. فلا بد من أن يحد جماح تلك الرغبة المسيطرة فيهم ، والنزعة الطامحة إلى الرياسة والغلبة ، شيء من استعدادهم للخضوع ، استعداد الفريق بين الأقدام الفذ ، والإرادة النفاذة ، وبين الاعتساف الماضى ، والاستبداد المسيطر ويردهم عن الفردية الظالمة ، نعم ما أحوج أولئك القادة ، أصحاب

الإرادة الثابتة إلى شيء من غريزة الخضوع يجنبهم خطر مايلزم سلطتهم المحببة للجماعة واستبدادهم المتقبل منها ، وبما فى الجوع من ظمأ إلى الطاعة أكثر من حب الحرية وجنوح إلى الاستسلام ، أغلب من الاعتداد بالنفس .
فالقادة أحوج الناس إلى منزلة نفسية سامية فى الاتزان ، بعد ماتهيأت لهم تلك المغريات الفاتنة .. بل لا يكتفى من القادة باتقاء هذه الفتنة ، والتخلص من سحر الإغراء ، وإنما عليهم بعد ذلك أن يعملوا على موازنة نفس الجماعة ، بما يثيرون فيها من اعتداد بالشخصية ، واحتفاظ بالكيان ، وإنها لمهمة لن يضطلع بها إلا أبطال النفوس والقلوب ، وما أدق الموقف فيها ، وما أكثر الزلل ! !

ولكم عانت الإنسانية وتعانى من قادة ، عز عليهم هذا الاتزان ، وشق عليهم ذلك التعادل ، وخانتهم أنفسهم ، فانقلبوا طغاة جامحين ، وجبابرة متمردين ، زلزلوا السلام ، وأرهقوا الدنيا وأساءوا إلى أممهم ، وإلى العالم معهم ، كما أساءوا إلى تاريخهم هم أنفسهم ، فضيعوا الملايين من الناس ، ثم آبوا فى أصيل حياتهم يحاسبون أنفسهم ، فكان أيسر ماخلفوا من أثر مدنى اجتماعى ، أخلد من أعظم ما نالوا من نصر وأحرزوا من غلب مدمر حاطم ..

راض القرآن نفوس رسله الكرام ، وهم القادة الأجلاء ، الذين تهيأت لهم الزعامة فى أكمل صورها ، وأخطر ظروفها ، وأكثرها إهاجة للوساوس وإغراء للرغبات .. راضهم القرآن رياضة حفظت توازنهم ثم دفعتهم بعد هذا إلى حفظ التوازن النفسي لأممهم .. وذلك أن القرآن

طالما أمر ، فى كثير من المواطن بطاعة الرسول وجعلها مع طاعة الله ، ورد إليه مع الله تعالى ما يختلف فيه : [يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ، وأولى الأمر منكم فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول ، إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا] جعل له الأمر والنهى : [وما أتاكم الرسولُ فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله]. جعل طاعته شاهد حب الله : [قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ، ويغفرْ لكم ذنوبكم] وقد سمعتموه يقول : [النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم] ، إلى كثير من مثل هذا ، الذى هيأ فيه للرسول ، أكرم مظاهر السيطرة ، وأرسخ ضروب الرياسة ، مما يرضي هذا الجانب من النفس الإنسانية ، وبه يثير فى رسله القادة ، تلك النزعات المتسامية من أنبل الشعور بالكرامة ، إلى أفضل ما يكون من احترام النفس ، وخيرما يرجى من إقدام ومضاء عزم وبذل روح فى سبيل إعلاء كلمة الحق بإبلاغ الرسالة ، وأداء الأمانة .. [وجعل كلمة الذين كفروا السفلى ، وكلمة الله هى العليا] . ولكن القرآن مع ذلك لم يدع الجانب الآخر من الغريزة المقابلة ، والقوة المعادلة ، بل كان صنيعه فى تقديرها ورعايتها ، عجباً من العجب ، تتضمنه آيات كثيرة ، منها قوله متحدثا عن الناس والرسول : [من يطع الرسولَ فقد أطاعَ الله ؛ ومن تولىّ فما أرسلناك عليهم حفيظا] وقد أدرك السابقون من المفسرين الملحظ الخاص عن طاعة الرسول فى هذه الآية فقال قائلهم(١) :

(١) الطبرى ٥ : ١١٢ .

هذا إعذار من الله إلى خلقه ، فى نبيه محمد ﷺ ، يقول الله تعالى ذكره لهم : من يطع أيها الناس محمداً فقد أطاعنى بطاعته إياه ، فاسمعوا قوله ، وأطيعوا أمره ، فإنه مهما يأمركم به من شيء ، فمن أمرى يأمركم ، ومهما ينهكم عنه من شيء فمن نهيى فلا يقولن أحدكم : إنما محمد بشر مثلنا يريد أن يتفضل علينا !! .. بل إن المفسرين ليوردون فى سبب نزول هذه الآية رواية ، تتنسم منها نسيم الحكمة السماوية ، فى رياضة جانبى القوة فى النفس البشرية ، رياضة تجعل كل قسم من هذه الآية حديثا إلى جانب من النفس ، فيروون[1] أن الرسول قال : من أحبنى فقد أحب الله ، ومن أطاعنى فقد أطاع الله ، فقال المنافقون : ألا تسمعون إلى ما يقول هذا الرجل ؟ لقد قارف الشرك ، وهو ينهى أن يعبد غير الله ، ما يريد هذا الرجل إلا أن نتخذه ربا ، الخ ما قالوا ، فنزل قوله تعالى : [ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظا] أى ما أرسلناك مهيمنا عليهم تحفظ عليهم أعمالهم وتحاسبهم عليها وتعاقبهم[2] ، فخوطبت ناحية السيطرة فى الرسول ، والخضوع فى الناس بالطاعة الأولى ، حتى فى صورتها اللطفة بجعل الطاعة للرسول من طاعة لله ، وخوطبت ناحية الخضوع فى الرسول ، والسيطرة فى الناس ، ببيان أنه ليس إلا نذيراً ، لا حفيظاً عليهم ... ولهذا الخطاب نظائر كثيرة فى القرآن ، إذ يقول : [فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظا إن عليك إلا البلاغ] ، وإذ ينفى أن يكون عليهم

---

(١) الزمخشرى الكشاف ١ : ٣٧٦ بتصرف يسير جدا .

(٢) عبارة الزمخشرى فى الموضع السابق .

وكيلا [ربكم أعلمُ بكم ،إن يشأْ يرحمْكم وإن يشأْ يعذبْكم وما أرسلناك عليهم وكيلا] ، أى ما أرسلناك رباً ، موكولا إليك أمرهم ، وإنما أرسلناك مبشراً ونذيراً كما يقول : [ولو شاء الله ما أشركوا ، وما جعلناك عليهم حفيظا ، وما أنت عليهم بوكيل] ويقول : [فمن اهتدى فلنفسه ، ومن ضل فإنما يضلّ عليها . وما أنتَ عليهم بوكيل] . [والذين اتخذوا من دونه أولياء الله حفيظ عليهم ، وما أنت عليهم بوكيل] ، بل يأمر الرسول نفسه ، بأن يقول هو ، لهم ذلك ، ويجاهرهم : [وكذّبَ به قومُك ، وهو الحقُّ قل لست عليكم بوكيل . لكل نبأ مُسْتَقر وسوف تعلمون]».
ويعنى القرآن بالإكثار من نفى هذه السيطرة فى مواضع متعددة . «إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر] أى لست بمتسلط ولا مستول عليهم ..
ويقف عند نفى الجبروت مواقف واضحة فيقول : [نحن أعلمُ بما يقولون وما أنت عليهم بجبار (1) فذكّرْ بالقرآنِ من يخافُ وعيدِ .] ، ويناوىء الجبروت والطغيان فى حديثه عن كثيرين من الرسل فى أعصر مختلفة ..
فيقول عن يحيى عليه السلام [وحنانا من لدنا وزكاة ، وكان تقيا ، وبرا بوالديه ولم يكن جباراً عصيا] كما يقول على لسان عيسى عليه السلام [وجعلنى مباركا أينما كنت ، وأوصانى بالصلاة والزكاة مادمت حيا ، وبرا بوالدتى ، ولم

(1) يريد المفسرون ليعقدوا الصلة ، بين أمثال هذه الآيات وآيات الجهاد ، ويقرروا النسخ ، ولا نرى هنا موضع الوقوف عند هذا والإفاضة فى رده ، ولا هو مستحق الإطالة ، فى مناقشته ، على أنه يلاحظ أن من القدماء من يردد فى المعنى لئلا يكون النسخ — النيسابورى ج ٣٠ هامش الطبرى ص ٨١ . ومن المحدثين من حمل على صنيع المفسرين فى هذا النسخ — الشيخ محمد عبده : تفسير جزء عم ص ٧٦

يجعلنى جباراً شقيا] ويجعل الجبروت منافيا ومعارضا للاصلاح ويراهما لايجتمعان ، فيقول على لسان محاور موسى عليه السلام : [أتريدأن تقتُـلَنى كما قتلت نفساً بالأمس ، إنْ تريدُ إلاّ أن تـكونَ جباراً فى الأرض ، وماتريدُ أن تـكون من المصلحين] . وهكذا عارض السيطرة والهيمنة ، وأن يكون القائد الرسول ، وهو القائد الأمثل حفيظاً ، ووكيلا ، يجبر ويلزم ، وقاوم الجبروت والطغيان منه فى عنف ومضاء .

أيتها القلوب المؤمنة .. بهذا الصنيع من هدى القرآن صنع القرآن ، قادة لاجبابرة ، وبهذه الرياضة الآلهية ارتاض رسول القرآن عليه السلام ، ودانت له الرقاب ، وتهيأت الأسباب ، وظل كما هو القائد الرسول يؤثر أن يكون عبد الله ورسوله ، ويكره أن يكون ملـكا مرهوبا ، يدخل عليه رجل فتصيبه رعدة من هيبته فيقول له : هون عليك.فإنى لست بملك ، إنما أنا ابن امرأة من قريش ، تأكل اللحم المجفف » .. ويثب رجل إلى يده ، ليقبلها فيجذبها ويقول له : « هذا تفعله الأعاجم بملوكها ، ولستَ بملك ، إنمــا أنا رجل منكم » (1)

ياشرق .. هكذا ضبط قادتك الأولون نفوسهم ، ووازنوا بين قوى أممهم ، فنالوا من النجاح حظهم .. واليوم يقدمك قوم ، لم يريشوا جناحك المهيض ، ولم يردوا عليك مجدك العتيد ، وإنما سيطروا بغير قوتك وساسوا بغير إرادتك ، ومع ذلك كله فقد شمخوا واستكبروا ، فطلبوا

(1) القارى — شرح الشفا — ١ : ٢٩٣/٢٩٤

أن يحنى لهم الرءوس ، وبسطوا أيديهم للتقبيل ، وجعلوا ذلك تقليداً متبعاً ويا ترى ، لو شهدوا المشاهد ، وواجهوا المكاره ، فمدوا الحدود ، وردوا المفقود ونازعوا الأمم الوجود ، ماذا كنت تراهم فاعلين إذ ذاك ؟ ! أكانوا لا يرضون من الناس بما دون تقبيل الأرض ، ولا يعفونهم من السجود !! سبحانك ربى ما أحلمك ؟ !

ياشباب : كما راض القرآن الرجال ، فرض نفسك ، وكما صاغ القادة فالتمس قادتك ، اتزن ووازن فلأنت ميزان حياة الشرق ...

قادة لا جبابرة

(٢)

[له الحكم وهو أسرع الحاسبين] .. تحدثت قبل الآن عن رياضة القرآن لنفوس القادة ، رياضة تجنبهم الإنحراف النفسى ، وتقيهم خطر الغرور الفردى ، فتبينت حاجة الإنسان الشديدة ، إلى موازنة كاملة ، وتعادل تام ، بين غريزتين متقابلتين من غرائزه ، أولاهما : حبه السيطرة والقهر ، ذلك الحب الذى يصدر عنه ، تعشقه للنجاح ، ورغبته فى التغلب على الصعوبات ، وإيثاره الاستقلال فى العمل ، ونزوعه إلى السيادة والتحكم فى من حوله من الأشخاص ، وجده فى طلاب ما حوله من الأشياء وانتزاعها من يد الآخرين .. وهذه الغريزة هى التى بتطرفها وجموحها تظهر الطغاة وتبرز الجبابرة .. وثانية الغريزتين المتقابلتين فينا .. هى غريزة الخضوع التى ينشأ عنها ، مافى الفرد والجماعة ، من إيمان بدين ، أو اتباع لنظام ، أو التزام بطاعة .. ورأينا كيف يعوز الفرد والجماعة ، أن تتزن فيهما هاتان الناحيتان ، وأنه فى سبيل تحقيق هذه الموازنة ، يجهد المصلحون ، ويجد المربون .. كما تبين لنا أن أشد الناس حاجة إلى هذا التعادل ، وأبعدهم أثرا فى الحياة بتوازنه ، هم القادة .. وقد عمل القرآن على تحقيق الاعتدال فى قادته الرسل عليهم السلام ، بتلك الحكمة الآلهية البعيدة . فرأيناه حينا يجعل طاعة الرسول طاعة لله ، وحب الرسول حبا لله ، ويرد النزاع والاختلاف إلى الله والرسول ، فيرضى بذلك النزعة الأولى ، ويمد أنفس

الرسل الكرام ، لجهاد الدنيا ، ونسيان الذات ، ولقاء الجماعات ، ثم إذا هو مع ذلك ، لاينسى أن يذكر الرسول بين الفينة والفينة ، بأنه ليس ربا موكولا إليه الأمر ، ولا متفضلا على الناس يسودهم ، فنسمعه يقول له : [لست عليهم بمسيطر] [وما أنت عليهم بجبار] [وما أنت عليهم بوكيل] [فما أرسلناك عليهم حفيظا ، إن عليك إلا البلاغ] إلى شبيه بذلك ، وبهذه الرياضة الحكيمة يكبح جماح النفوس البشرية ، فى أولئك المرسلين إذا ماتهيأت لهم وسائل التسلط ، وانقادت الجموع لزعامتهم المحببة ، وآزرتهم حاجة الجماعة إلى السيطرة واستكانتها لها ، ... فيلقاهم بمثل ماسمعنا ممايوجب الخضوع — ويحدد المركز ويدفع الخطر ، فتراهم ، وقد جاء نصر الله والفتح ، هم هم أولئك الودعاء المتواضعين ، ينادون أنهم عباد الله ورسله ، بشر مثلكم ورجال مثلكم ، ليسوا ملوكا ، ولا جبابرة يرهبون ... وهكذا صنع القرآن ، قادة لاجبابرة ، وهكذا رأينا من هدى القرآن ، خير كفاح للجبروت ، وخير كبح للطغيان ، وتمنيناه للمتصدرين فينا والمتزعمين .

أيها المؤمنون بحقهم فى الحياة ... إذا ماذكر الطغيان وكفاحه ، فقد حق للروح أن تستشرف ، وللقلم أن يتنفس ، وفى الحياة الدينية ونواميسها ، مجال لذلك أى مجال ، إذ يتحدث الراصدون لسير الكون ، عما بين الإيمان والسلطان من صلة وثيقة وتفاعل قوى .. صلة بين العقيدة والحكم ، بين التدين ، وقيادة الجماعات ؛ أو بعبارة أصرح ، بين الدين والسياسة ، صلة محكمة العرى ، بعيدة الأثر .. بدأت منذ النشأة الأولى إذ كان رب الأسرة

ورأسها ، هو فيها الحاكم السائس ، وهو نفسه كاهنها ، أو شيخها ورئيسها الديني تلتقي فيه هاتان الصفتان ، ويجتمع في شخصه الاعتباران ..

فإذا مامضت الحياة تتدرج ، والأعمال في الجماعة توزع ، كان لها رئيسان مدبر سياسي ، بأي إسم سميته ، وأي لقب اختاره أو اختير له ، ثم مدبر ديني روحي بأي نعت نعته ، وأي تكريم آثرته ، وإذ ذاك وقد تعددت الشخصيات فعلا ، يظل واقع الحياة ، يحوج الرياستين إلى تعاون وثيق متبادل ، ويقتضيهما تساندا شاملا متكاملا ، فما يقوم كل منهما إلا بمعونة صاحبه ، ولا يقوى إلا بتأييده ، فالمدبر الديني ، يمسح الحاكم أو يتوجه ، ويباركه ، أو يأخذ له البيعة ويدعو له ، أو ماإلى ذلك من عبارات ، اختلفت ألفاظها ، واتفقت مدلولاتها .. والمدبر العملي ، يظل ينزل عند رأى المدبر الديني ، يستأذنه ، أو يستشيره ، أو يستفتيه .. إلى ماشئت من عبارات اختلفت ألفاظها أيضاً ، والتقت مدلولاتها ... وهكذا يحس الباحثون أن الدين والسياسة فيما يشبهونهما تظاهر الثوب وبطانته ، الظاهر العقيدة ، والبطانة الحكم أو الظاهر السياسة والبطانة الدين ، سواء العقيدة ترسم أو توحي ، والحكم ينفذ ويقرر ، أو السياسة تدبر وتقصد ، والدين يقدس ويشرع ويعلن ، وكل منهما يتأيد بصاحبه، مهما تختلف ألوان ذلك وتتغاير ... كذلك مضيا على هذا الشأن ، فيما عرفت الحياة من الأطوار والأدوار ومع ماندرجت فيه من مراتب التقدم والرقي ، وكذلك وجها الحياة وسيراها دائما . وكان التوجيه يتأثر باختلاف الأهواء ، واختلاف الضمائر والبيئات ، فقد يرشد حينا ويوفق ، وقد يضل حينا ويغوى ، فإن ضل

فالحاكم مقدس ، وحقه إلهى ، وإذا حراس المتقد ، يحلون له من أرواح الناس وأموالهم وأغراضهم ماشاء غير محاسب ، وإذا الناس يعانون من الحكم عنتا مرهقا ، وظلماً مبيراً .. وحينما يضل فلقد يطمع رجل العقيدة نفسه فى الحكم فإذا هو ممثل كذا ونائب كذا على الأرض ، وإذا هو المحل المحرم ، وإذا هو فى جشعه ونهمه ، أشنع وأقسى من الطغاة المدنيين المستبدين .. وعندما يكون هذا الإنحراف ، تهب القوى الحيوية الكامنة فى الإنسانية لتدفع ضرره ، مستعينة فى ذلك بما ثقفته من علم ومعرفة ، مسترشدة عقلها وسائر قواها ، فإذا الدنيا تشهد ألوانا من الكفاح النبيل ، والجهاد الكريم ، هو أفضل ماسطر تاريخ البشرية ، إنارة للسبيل ، وتسديداً للخطى إذ تؤثر العقيدة فى الحكم ، أو يؤثر الحكم فى العقيدة ، تأثيراً ضاراً تخشاه العقول المتحررة ، والنفوس الأبية ، ويكون وراءه ماوراءه من الطغيان والعدوان ، والجبروت ..

أيها المؤمنون بحقهم فى الحياة .. عندما احتكمت الشهوات فى تسيير مابين الإيمان والسلطان من تعاون ، وخشى المجاهدون من الأحرار من آثار ذلك ماخشوا ، جاهدوا فى سبيل دفعه ماجاهدوا ، فسموا إلى ماسموا إليه ، من فصل بين الدين والدولة فى الغرب ، وقلدهم فى ذلك من قلدهم بالشرق . وكانت تلك الصفحات فى التاريخ ، أحفل صفحاته وقائع ومقاتل فكيف واجه القرآن هذه الأزمات ؟ وكيف دبرلها ؟ وهل سايرت الحياة مادبره لها ؟ أو احتكم فيها واقع مادى ، حال بينها وبين مافى هذا التدبير من خير ؟ تلك نواح خليقة بالنظر ، جديرة بالتدبر .

إن هذا القرآن يدفع إلى طراز من الحكم يحميه الإيمان ، وتؤازره العقيدة ، فالصلة بين الإيمان والسلطان عنده وثيقة عتيدة ، فوق مالها من وثاقة بطبيعتها ، فكيف نظر فى هذه الصلة الخطرة ؟ وكيف وقاها عبث الشهوات ؟ وهل جنبها خطر الطغيان ؟ .. ألا فاستمع لآيات له فى الحكم ومصدره ، إذ يقول : [إنْ الحكمُ إلاّ لله ، يقصُّ الحقَّ . وهو خيرُ الفاصلين] [ثم رُدُّوا إلى الله مولاهم الحقِّ . ألا له الحكمُ وهو أسرع الحاسبين] [إن الحكم إلا لله ، أمر ألاّ تعبدوا إلا إياه ، ذلك الدينُ القيِّمُ ولكنَّ أكثرَ النـــاس لا يعلمون] [وما أغنى عنكم من الله من شىء ، إن الحكمُ إلا لله عليه توكلتُ . وعليه فليتوكل المتوكلون] [وهو الذى لا إله إلا هو ، له الحمدُ فى الأولى والآخرة وله الحكم ، وإليه تُرجعون] [ولا تَدْعُ مع الله إلهاً آخرَ ، لا إلهَ إلا هو ؛ كلُّ شىء هالك إلا وجهَه له الحكمُ ، وإليه تُرْجَعُون] [ذلكمْ بأنه إذا أدعى اللهُ وحدَهُ كفرتُمْ ، وإن يشركْ ، تؤمنوا فالحكمُ لله العلىِّ الكبير ..] تلك آيات يتحدث فيها القرآن عن الحكم ، إن فى مشاكل الدنيـــا ، وإن فى مشاكل الدين فالأمر فى ذلك سواء ، والمتدبر فى هذه الآيات ، يلمح فيها مظاهر مطردة متسقة ، لم تتخلف ، فهى كما سمعنا ، تقصر الحكم على الله وحده وتفرده به . ثم هى كلها تسوق هذا القصر فى ظلال رهيبة ، من وحدانية الله ، وإفراده بالعبادة . وعدم الاشراك به ، وتقرير أنه المولى الحق تجد ذلك فى سياق الآية ، أو تسمعه فى نظمها ، كقوله :[أمر ألا تعبدوا إلا أياه ، وهو الذى لا إله إلا هو ، ولا تدعُ مع الله إلها آخر]. ثم تلمح

حول ظلال الوحدانية ، ألوانا من الكبرياء ، والتفرد ، والعلو ، فالحكم لله العلى الكبير ، وهو أسرع الحاسبين ، وهو خير الفاصلين ، وإليه ترجعون ، مولاهم الحق .. ويزيدها بيانا توهين من عداه : [كل شيء هالك إلا وجهه ، وما أغنى عنكم من الله من شيء .] . كل أولئك ، يكون صورة كاملة عن نظرة القرآن إلى الحكم ، وصلته بالعقيدة ، فهو لله وحده ، وله من التفرد والتنزه ما رأينا ، ولغيره من الضعف ما سجل ، فليس للبشر بعد هذا كله ، سبيل إلى تزييف شيء من هذه المظاهر ، بل قد قطعت عليهم كل السبل إلى هذا التزييف ، وهم القانون ، الهالكون لايغنون من الله شيئا .. والمؤمن بهذا كله ، لن تكون عقيدته مطية لخدمة حكم جائر ، ونظام ظالم :.

أيها المؤمنون بحقهم فى الحياة .. إن بين الفرق الإسلامية الأولى فرقة عربية النزعة ، بدوية المثل خالصة العرق والفكر ، لم تعتمد اعتماد غيرها ، على عدوى دينيـة أو فلسفية ، تلك هى فرقة الخوارج ، وقد سمّى أصحابها المحكمين إذ رفضوا التحكيم وكان شعارهم الثابت ، وهتافهم المردد ، لاحكم إلا لله فكان من مبادئهم هذا الشعار : إن الحاكم الظالم كافر ، وإن الخروج على من جار وظلم واجب فى غير تقية ، ولا موارية ، ولامداراة ، وحتى دون نظر إلى القوة الخارجة ، والقوة الحاكمة ، وعدم تعادلهما ، ولقد نظروا فى أصول الحكم نظرة خالفت من عداهم من المسلمين جميعاً ، فجعلوا اختيار الحاكم بالانتخاب الحر ، دون قيد ما ، وأبى هؤلاء المحكمون أن يكون الحكم حقاً لأسرة الرسول عليه السلام ، وأهل بيته ،

كما رأت الشيعه أو رفضوا أن يكون الاختيار من قبيلة بعينها دون غيرها كما جعلت جمهرة المسلمين الأئمة من قريش ووقفت عند ذلك .

أيها المؤمنون بحقهم فى الحياة .. أكان أولئك المحكمون حينما يهتفون « لاحكم إلا لله » إنما يرددون قول القرآن نفسه [إن الحكم إلا لله] ؟ فكانوا إنما يصرخون بدعوة القرآن النبيلة ويندفعون بروح القرآن البريئة السامية ؟ تلك الروح التى أعوزها على هذه الأرض ، جسم يتلقى نقاءها وبراءتها ولا يكدره الرياء الاجتماعى ، ولايطفىء سناه التحكم المادى الواقعى .. أكان المحكمون هم الذين أدركوا بفطرتهم ذلك ؟ ولوهيئ لهم ، غير ماتهيأ من ظروف الحياة ، وخلصوا من التطرف والتعنت وما إليه لوضعوا أصول الحكم فى الإسلام ، على غير هذه القواعد ؟ ربما كان الأمر كذلك ، وأحسبه كذلك ، وسواء أرأى مستمعى الكرام هذا الرأى معى أم توقفوا دونه قليلا ، فإن أصول القرآن السامية فى مقاومة الطغيان باقية مادامت السموات والأرض ، خالدة خلود الحق .. وقد أيدت تلك الأصول فى مقاومة الجبروت تفاصيل كثيرة ، ومبادئ راسخة ، تكفى – رغم كل شيء – لمطاردة الطغيان ، وقهر الجبروت ، كلما سمت الروح الإنسانية إلى ذلك وحاولته ، والحديث عن هذه التفاصيل وتلكم المبادىء فسيح الأرجاء ، واسع المدى ، بعيد الغور ..

أيها المؤمنون بحقهم فى الحياة .. يحتج الطغاة دائماً إلى تأييد دعاواهم ، بدعائم اعتقادية ومزاعم روحية . فهذا يناديه هاتف ، وذاك يلقى فى روعه

إلهام ، وآخر يأتيه وحى ، وغيره قد تقمصته روح أو اختارته السماء
إلى أشباه ذلك ، من دعاوى روّج بها قوم ، قديماً وحديثاً ، لمزاياهم وامتيازاتهم
ليرتبوا على ذلك حقوقاً وصفات يسلبون بها ألباب الجماهير ، ويبسطون
بها عليهم ألوان السلطان والتسخير ، فإذا ما قدر مستمعى الكرام شيوع
هذه الظاهرة فى القديم والحديث ، ثم نظروا بعد ذلك إلى خطة القرآن
فى مقاومة مثل هذا ، أدركوا حكمة خطته العظيمة فى استئصال الشأفة
واجتثاث الجذور ، وقطع السبل وإحالة الوصول ، لوكان الناس يعلمون ..
لقد أسس خطته المحكمة ، على الأساس الوطيد الذى لايمل المنصف
ترداد القول فيه ، وهو بشرية الرسل أنفسهم ، وتقريره مماثلتهم للناس ،
وتمام مشابهتهم لهم ، فإذا كان الرسل حملة الوحى كذلك .. فمن لغيرهم
بهذه المزاعم الدعاة !! . . ثم مضى — على ما بينا — يعلى غريزة الخضوع
فى الرسل عليهم السلام ، ويوازن بينها وبين حب السيطرة ، فيحميهم من
الطغيان ، ويصنع منهم قادة لاجبابرة . . فمن أين لغيرهم هـذا الجبروت
المزعوم ! ! وما إسناده . ؟ ثم ها أنتم هؤلاء قد سمعتم قوله فى الحكم ،
وما فهمت منه فطرة عربية ، فإذا هو التفرد بالسلطان ، وللبشرية ضعفها ،
الذى لايجعل حكمها ، مع هذا الضعف ، إلا إقراراً لعدالة الله وأمراً
بمعروف ، ونهيا عن منكر ، ولن يكون المتصدرون لمثل هذا إلا قادة
لاجبابرة ...

وهكذا ياشرق .. ترتشف من هذا المعين الصافى نمير الحرية الحقة ،

بارئاً من لوثة المزاعم الروحية المريبة عصيا على التسميم ـ ما شاء الله أن يستعصى ـ فهل يروى اليوم ، شباب الشروق ، من هذه الحرية الحقة ويؤمن بحظه منها وحقه فيها ، وسبقه إليها ، وإقرارها عنده ، على أساس عتيد ؟ ثم هل يحمل إلى العالم كله ريّا من غير هـــذا الهدى الطهور ؟ ليت وليت .

قادة لاجبابرة

(٣)

[هذا وإنّ للطاغين لَشرَّ مآب] وبعد فقد رأى متابعىّ الأعزاء كيف صنع القرآن قادة الأمم ، وما فيهم مسيطر ، ولاجبار ، ولاحفيظ على قومه .. وإن هذا الكفاح القرآنى للطغيان مما يحلو فيه القول ويجمل الاستقصاء ، فلما التمسنا نظرته فى أصول الحكم ، ظفرنا من هديه ، بغرر كرائم ودرر ساطعات ، عرفناه فيها يقصر الحكم على الله الواحد المتفرِّد ، العلى الكبير ، الذى لايشركه أحد ، ولا يدعى معه غيره ، لاإله إلاهو ، له الحكم وهوخير الفاصلين . وقد هون فى ذلك شأن البشر ، الضعاف الفانين فقطع عليهم سبيل الطغيان باسم الدين ورد التعاون بين السلطتين الدينية والسياسية ، تعاوناً مأمون العاقبة مدفوع الخطر .

ومنذ دعا القرآن هذه الدعوة الحرة الكريمة ، تلقتها فِطَرٌ عربية قد استشفت مرماه ، واستشرفت لهدفه البعيد فجعلت شعارها «لاحكم إلا الله» وهى عبارة القرآن المرددة مراراً « إن الحكم إلا الله » ووضع هؤلاء القوم تحت هذا الشعار مبادئ وأصولا للحرية ، لعل البشرية لم تصل رغم جهادها المتواصل أجيالاطوالا ، إلى أكثر منها أوأجرأ ، فقد جعلوا الحاكم الظالم كافراً وجهروا بهذا الحكم فى حق رجال مكرمين ، والتزموا مقاتلة هذا الظالم فى غير مواربة ولا مداراة ، مهما تكن قوة الظالم أو ضعف المظلوم ... وعينوا الحاكم بالاختيار الحر ، دون قيد ما ، فلم يخصوا بذلك قبيلة ولاأسرة ، ولاميزوا فردا ..

أيها المؤمنون بحقهم فى الحرية :

تلك أثارة من تدبير الكبير المتكبر ، الذى له الكبرياء فى السموات والأرض ، وهو العزيز الحكيم . أثارة من قوة الجبار ، ردت طغاة الأرض وجبابرة الحكم فى نظر المؤمنين ، قوماً ضعافاً ، هلكى زائلين . . وهذا فيض من عظمة العلى ذى الجلالة ، يرفع النفس الإنسانية إلى أسمى مايستطيع أن تناله ، من ذرى الكرامة ، وآفاق العزة وأكناف الحرية وهو هدى قرآنى قد باكر الحياة ، منذ عشرات العقود من السنين ، فكيف تلقته الإنسانية ، وإلى أى مدى استجابت له ؟ ...

إن أولئك الأولين من المسلمين ، المنادين بأن لا حكم إلا لله ، والمقررين لما سمعم ، من أصول الحكم ، قد نبذوا باسم الخوارج ، كما تعرفون .. لكنهم كانوا المخلصين الباذلين الذين وهبوا ، هذه المبادىء أرواحهم ، وسخوا فى سبيلها بنفوسهم وأموالهم وسائر دنياهم ، وناضلوا من أجلها نضالا كان ولا يزال إلى اليوم ، من أنبل ما عرف التاريخ من صفحات البطولة النفسية ، والمجد البشرى ، وما منكم إلا من سمع عن بسالتهم فى حروبهم بل عن شجاعة النساء فيهم قبل الرجال ، مما هو مثل اعلى ، فى تسامى النفس الآدمية إلى غايات روحية ، تزدرى الدنيا وتحتقر الأرض والمادة . . ولئن كان الصابر يغلب عشرة رجال ، فلقد كان الواحد من هؤلاء المحكمين يقتل الخمسين ، ويقهر أربعون منهم ألفين من خصومهم ... وهكذا قاتل أصحاب فكرة فى الحرية ، عن فكرتهم قتالا طال عشرات كثيرة من السنين ، حتى أجلبت عليهم

الدولة بخيلها ورجلها . فأعادوا قبس الحرية المقدس إلى سناه السماوى ، بين دفتى القرآن الخالد ، أمانة للخالفين ، وتراثا للأجيال التالية . . تلك الأجيال التى عرفت المحكمين ، فرقة دينية بين المتكلمين ؛ أو بيئة أدبية بين المتأدبين ، ولكنها لم تعرفهم جنوداً للحرية ، قاتلوا من أجل عقيدة حرة ، وضحوا من أجل يقين لها ثابت . . جنوداً للحرية ، صيروا الحرب حينا ما أداة فى تاريخ الحضارة لإقرار حق الإنسان فى الحرية ونسف أسس الطغيان ، دون رغبة فى حطام فان ، ولا عرض زائل ، من فىء مقسم ، أو غنيمة موزعة ، أو مال منتهب .

لو حاولنا أن نعرف إلى أى مدى استجابت الإنسانية ، لهذا الهدى القرآنى فى أصول الحكم وحق الحرية فى ذلك العهد المبكر ، لعرفنا — وياللأسف — أن البشرية إذ ذاك ، قد تقدمت بإغرائها المسلح ، وفتنتها المثيرة ، ومتاعها الغرور ، فتلعبت بأفئدة الحكام أو المستشارين ، واستهوت المشرعين والقاضين ، وسحرت الجنود والمنفذين ، فمكنت للرياء الاجتماعى وهيأت للسيطرة المتفردة ، تتشهى وتتلهى ، وتعبث وتلعب . . وكأن قد ضعفت الطبيعة البشرية ، فى الكثرة الغالبة لهذا العهد ، عن أن تنهض ، بما هيأها له القرآن من حق الحرية ، حين ردد عليهم مثل قوله فى أصول الحكم [إن الحكم إلا لله] [أمر ألا تعبدوا إلا إياه] [ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون] فكما وقفت القوة ، فى سبيل نشر المبادىء التى نادى بها جنود الحرية ، من المحكمين كذلك قعد العقل المفكر ، عن تقرير أصول تلك الحرية عند بحثه ،

مسألة الإمامة والخلافة ونظمها فى كتب الكلام والأحكام[1] . والمتتبع لمثل هذه المباحث ، يلمح فيها ظواهر لهذا القعود العقلى ، تلفت النظر وتشعر المطلع بأن هؤلاء الباحثين لم يطمحوا إلى الحرية ومصارعة الطغيان ، ذلك الطموح القرآنى الكريم ، فمن ذلك أنهم — فيما رأيت من مطولاتهم — قد انصرفوا عن التماس النظرة القرآنية فى هذا ، ولم يلتمسوا أصولها فى مثل آياته الكريمة التى تلوت بعضاً منها قبل الآن . لم يقفوا عند التماس هذه النظرة القرآنية الجامعة فى هذا ، على حين تراهم يستشهدون بالشعر فى كلامهم عن الإمامة والحاجة إليها ، ولو أنهم وقفوا عند الهدى القرآنى فى تحرير البشر واستنهاضهم ، لكان موقفهم فى تقرير الحق الإنسانى أفضل كثيراً مما كان ولكان أشبه بما اطمأن إليه المحكمون ، حماة الحرية ، فيما نرجح .

أيها المؤمنون بحقهم فى الحرية ... إن من مظاهر هذا القعود العقلى ، عن الهدف القرآنى الحر أيضاً ، أن القرآن يأمر الرسول عليه السلام بالشورى فى قوله : [وشاورهم فى الأمر] ويصف المؤمنين بقوله : [وأمرهم شورى بينهم] ، ولكنك ترى هؤلاء الباحثين فى الحكم ونظمه لا يعرضون لشىء من هذا الأمر وذلك الوصف بل تسمع لهم العبارات المبهمة الموهمة ، بل المريبة عن ولاية الإمام الحاكم . كقولهم : إن ولايته عامة مطلقة . وقولهم : « إن الإمام له حق التصرف فى رقاب الناس ، وأموالهم وأبضاعهم وكذلك

(١) راجع المواقف للعضد الإيجى ، والأحكام السلطانية للماوردى ، وماماثلهما

خطب الخلفاء بمثل قول المنصور العباسي : أيها الناس ، إنما أنا سلطان الله في أرضه . . وحارسه على ماله . . . فقد جعلني الله عليه قفلا ، إن شاء أن يفتحني فتحني لإعطائكم ، وقسم أرزاقكم ، وإن شاء أن يقفلني عليها أقفلني » إلى شبيه بهذا ، أو أشد منه ، يخاطب ويعامل به قوم قال الله لرسولهم نفسه [لست عليهم بمسيطر] [وما أنت عليهم بجبار وما أنت عليهم بوكيل] [وما أرسلناك عليهم حفيظا] . والرسول عليه السلام في مثل المقام الذي قال فيه المنصور يقول للناس : « إنما أنا قاسم ، والله معط » .

أيها المؤمنون بحقهم في الحرية ... إن من مظاهر القعود العقلي عن الأفق القرآني الحر ، أن يقرروا أن الأمر يتم للحاكم دون افتقار إلى إجماع من أهل الحل والعقد ، بل يكتفى في ذلك ببيعة الاثنين أو الواحد منهم ، في أقوال ، وبهذا يجب اتباع هذا الحاكم ، وبهذا يتعدد الأئمة . . ويبحث عن حل لهذه المشكلة ... ولو نظروا إلى الأمر نظرة أكثر جدا وأعمق من هذا أساسا ، على هدى القرآن في تقدير الحرية ، وتقرير حق الحكم ، لخلصوا من مثل هذه الآراء ، ولكن الكتب قد حملتها وقطعت بها إلينا مئات السنين ، كما هيأ الضعف النفسي والخلقي لهذه العهود أن تكون مصادر اضطراب وشقاء للمحكومين ، ومبعث إغراء وضراوة في الحاكمين . .

أيها المؤمنون بحقهم في الحرية ... إن حقا على القوامين بشئون الثقافة الإسلامية أن يقدروا ، أن الكلمة الأخيرة في هذه الشئون لم تقل بعد ، وأن تسامي القرآن الحر في خلق القادة والحكام ، ومجابهة الجبروت وتحطيم الطغيان لم يلق من عمل العاملين ، ولا من تفكيرا لمفكرين ما يفي بحقه .

وإن حقا عليهم أن يقدروا أن الإنسانية ، فيما مضى قدماتها ضعفها ، وقصر بها مستواها الفكرى والاجتماعى ، عن النهوض إلى هذا الاستشراف القرآنى الحر .. ثم هذه الدنيا قد نالت بعد ذلك من التقـدم ما يجب أن يستكمل على ضوئه النظر العميق ، فى هذه الأصول القرآنية الحرة التى تتوثب حيوية ، وصلاحية للبقاء وإنهاضا للحضارة المستشرفة المتسامية ، وتلك الأصول القرآنية هى التى بدأت منذ عهد بعيد ، تصنع من الرسل أنفسهم ، قادة لا جبابرة . . . وتصنع من الحكام ، وهم غير رسل ولا مصطفين ، أولئك القادة غير الطغاة ، ولن تصنع منهم أبدا إلا قادة . قادة . . ليسوا فى شىء من الطغيان ، ولا ممكنين من شىء من الجبروت . . . وليلتمس أصحاب القرآن ، هَدْيَه ، فى حق الحرية ، كما رأيناه ، نبيلا ، رفيعا ، بعيد المدى ، متيحا للانسانية أبعد ما يناله استعدادها ورقيها .

محتويات الكتاب

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ٩٤٣٢/ ١٩٩٦

ISBN 977- 01 - 4945 - 4

■ أمين الخولى

- ولد بإحدى قرى المنوفية فى أول مايو ١٨٩٥، وتوفى فى ٩ مارس ١٩٦٦.

- تخرج فى مدرسة القضاء الشرعى وعين مدرسًا بها عام ١٩٢٠ إلى أن اختير إمامًا للمفوضية المصرية فى روما، ثم فى برلين، وعاد إلى مصر عام ١٩٢٨، فالتحق بجامعة فؤاد الأول (القاهرة) مدرسًا بقسم اللغة العربية بكلية الآداب، ووصل فيه إلى أستاذ كرسى إلى أن ترك الجامعة عام ١٩٥٣.

- من أعماله: «مشكلات حياتنا اللغوية»، «مناهج التجديد»، «البلاغة وعلم النفس»، «الحياة الدينية فى مصر» ، «المجددون فى الإسلام»، «من هدى القرآن»، فضلاً عن كتاباته عن
وإسهامه فى إخراج الطبعة
المعارف الإسلامية.

- له العديد من المسرحيات منها
«الراهب المتنكر».

- مؤسس مدرسة التجديد فى الـ

مكتبة الأسرة



بسعر رمزى جنيه وربع
بمناسبة
مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٧

مطابع
الهيئة المصرية العامة للكتاب